التعليق على مواضع
من كتاب فتح المجيد

لفضيلة الشيخ الدكتور
سفر بن عبد الرحمن الحوالي

1 - أهمية التوحيد

الحمد لله رب العـالمين، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد:

فنبدأ بـإذن الله تبـارك وتعـالى وبحوله وقوتـه، في هـذه الحلقات العلمية، في شرح كتاب التوحيد ، الموسوم بـــفتح المجيد ، والتوحيد لا يخفى على أحد من المسلمين أهميته؛ ولكن ربما غفل الإنســـان عن أهمية بعض ما يعلم أنه أهم الأمور، مع عامل الزمن والغفلة والتكرار.

فــأعظم قضــية وواجب، وأعظم ما شــرعه الله تبــارك وتعالى هو توحيده عز وجل ومعرفته، والرسول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو إمام الهدى، وإمام الموحــدين، وهو الــذي بعثه الله تبـارك وتعـالى رحمة للعـالمين، فـدعا إلى اللــه، وجاهد فيه حق جهـــاده- إنما جـــاء ليحقق كلمة التوحيـــد، ويدعو إليها.

وأعظم ما نهى الله عنه رســـوله، وحـــذره منــــه؛ هو الشرك، الـذي هو ضد التوحيـد، فـأمره الله تبـارك وتعـالى بقوله: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ [محمـد:19] وقال: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ أَنِ اتَّبِـعْ مِلَّةَ إِبْـرَاهِيمَ حَنِيفـاً [النحـل: 123] وهـذا هو التوحيـد، ثم قـال: وَلَقَـدْ أُوحِيَ إِلَيْـكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ وَلَتَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الزمر:65].

فالله تبـارك وتعـالى يخـاطب بهـذه الآية داعية التوحيد العظيم، وإمام الموحدين، وهو رسول الله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ [الزمـر:65] فكل الرسل أوحى الله إليهم؛ بهـــذا الأمر العظيم: وَلَقَـــدْ أُوحِيَ إِلَيْــكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِــكَ لَئِنْ أَشْـــرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِـرِينَ [الزمـر:65] فـإذا كـان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحـذر رسـوله ومصـطفاه وخيرته من خلقة محمـداً صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؛ من الشـرك، فيجب علينا

نحن الضعفاء، والـذي احتمـال وقوعنا في الشـرك وارد أن نحذر منه، أما هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالاحتمال فيه غــير وارد، ولكن التحذير له من باب التذكير.

فـــالواجب علينا أشد في أن نتحـــرى معرفة التوحيـــد، ومعرفة ضـــده وهو الشـــرك، فنوحد الله تبــارك وتعــالى، ونعبده وحده لا شريك لـه، ونتجنب الشـرك الـذي هو بهـذه المنزلة، والمثابة، والخطورة.

وسوف نختار بإذن الله في هذه الـدروس بعض الأبـواب من كتـاب فتح المجيد وعنـدما أقـول: قـال الشـارح، فإنما أعــني به شــارح كتــاب التوحيد : الشــيخ عبد الــرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه اللـه، وعنـدما أنتقل إلى الكلام على الشرح المذكور؛ فأصدر كلامي بلفظ: أقول.

2 - فضل التوحيد

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

'بــاب فضل التوحيد وما يكفر من الــذنوب، وقــول الله تعــالى: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُــوا إِيمَــانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَــلَّى اللــهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ: {من شــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له وأن محمـداً عبـده ورسـوله وأن عيسى عبد الله ورســـوله، وكلمته ألقاها إلى مـــريم وروح منـــه، والجنة حق، والنـار حـق، أدخله الله الجنة على ما كـان من العمل أخرجاه } '.

قـال الشـارح: ' قـول المصـنف: بـاب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، باب خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا.

قلت: ويجـوز أن يكـون مبتـدأً خـبره محـذوف، تقـديره: هذا، و(ما) يجـوز أن تكـون موصـولة والعائد محـذوف، أي:

وبيان الذي يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر. '.

3 - تفسير آية الأمن والاهتداء

'قول المصنف: وقول الله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82] قال ابن جرير : حدثني المثنى -وساق بسنده- عن الربيع بن أنس قال: الإيمان: الإخلاص لله وحده.

وقال ابن كثير في الآية: أي: هؤلاء الذين اخلصوا العبادة لله وحده، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

وقال ابن زيد ، وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود : { لما نزلت هذه الآية، قالوا: فأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليس بذلكم، ألم تسمعوا إلى قول لقمان : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان:13] }.

وساقه البخاري بسنده فقال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: { لما نزلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام:82] قلنا: يا رسول الله! أينا لا يظلم نفسه؟! قال: ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان:13] }.

ولأحمد بنحوه، عن عبد الله قال: { لما نزلت الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام:82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا

رسـول اللـه! فأيُّنا لا يظلم نفسـه؟ قـال: إنه ليس الـذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصـالح: يَا بُنَيَّ لا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمـان:13]؟ إنما هو الشرك }.

وعن عمر أنه فسره بالذنب، فيكون المعـنى: الأمن من كل عـذاب، وقـال الحسن والكلـبي : أولئك لهم الأمن في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا '.

أقول: المقصود من قوله: باب فضل التوحيـد، أي: يجب علينا وينبغي أن نعرف فضل التوحيـد، وأن نعـرف ما الـذي يكفره التوحيد من الذنوب.

فالإمـام محمد بن عبد الوهـاب رحمة الله عليـه، جعل العنوان: ' بـاب فضل التوحيد وما يكفر به من الـذنوب ' ثم ذكر قـول الله تبـارك وتعـالى: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعـام:82] فـذكر هـذه الآية في هـذا البـاب، والبـاب عنوانـه: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، فكيف يأتي بهـذه الآية وهي: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82].

فنقـول: أنه جـاء بها لمناسـبة عظيمة واضـحة، وهي ما ذكره في الشرح، من تفسير رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ومن تفسـير ابن كثـير رحمه اللـه، ثم ذكر الشـارح قول ابن زيد ، وابن إسحاق : هذه من الله، فما معنى هـذه من الله؟ ثم قال: على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

معنى قوله: هـذه من اللـه، يقصد بها قـول الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82] فالله تبـارك وتعـالى فصل بهذه الآية بين إبراهيم وقومه.

قصة المجادلة بين إبراهيم وقومه

إذن نحتاج أن نعرف ما هي المشكلة التي كانت بين إبراهيم وقومه؟ وما هي علاقة الموضوع بالشرك والتوحيد؟ ولماذا فصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بينهم بهذه الآية؟ ثم ما معنى هذا الفصل؟

فأما ما وقع بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه، فقد ذكره الله تبارك وتعالى قبل هذه الآية في قصة في سورة الأنعام: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [الأنعام:75] فكان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الكواكب، ويبنون الهياكل لعبادتها، وينحتون التماثيل ويعبدونها من دون الله، كما بين الله تبارك وتعالى في كتابه.

فالله تبارك وتعالى أراد أن يجعل إبراهيم عليه السلام من الموقنين: وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي [الأنعام:75-76] فهو يسأل قومه الذين يعبدون الكواكب: هل هذا ربه؟ وهذا من المناظرة والمجادلة والمحاجة: فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ [الأنعام:76] ومعنى أفل، أي: غاب وغرب وذهب، فإله يعبد ويرجى ويخشى ويدعى ويستجار به ويستغاث به، وعند الهموم والمصائب والنوازل يكون الاضطرار إليه، والحاجة إليه، والافتقار إليه، وإذا بهذا الإله يغيب ويذهب ويأفل عن عبيده، هذا ليس إلهاً.

فقال: قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ [الأنعام:76].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه العقل الراجح،والبيان والحجة على قومه.

ثم قال: فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي [الأنعام:77] والقمر أكبر وأوضح وأجلى للناظرين من ذلك الكوكب: فَلَمَّا أَفَلَ حدث نفس الشيء للقمر أيضاً، فهو يغيب ويأفل ويذهب: قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

الْقَوْمِ الضَّالِّينَ [الأنعام:77] وانتظـر، فـإذا بالشـمس: فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَـالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَـرُ [الأنعـام:78] فالشمس أكبر من القمر.

أي: إن كـانت الألوهية بـالنور أو كـانت بـالحجم، فـإذا الشمس أولى بالعبادة من القمر ومن ذلك الكـوكب، وهـذا على سـبيل المحاجـة، لأن قومه لا يعبـدون الشـمس، وقد ذكر الله سـبحانه تعـالى أن أمة من الأمم كـانت تعبد الشـمس من دون اللـه، وهم قـوم سـبأ: وَجَـدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [النمـل:24] لكن قـوم إبـراهيم عليه السـلام لم يكونـوا مثل قـوم سـبأ يعبـدون الشمس -علماً أن عباد الشمس إلى الآن موجـودين- ولكن أراد أن يجادلهم.

قـال هـذا أكـبر: فَلَمَّا أَفَلَتْ قَـالَ يَا قَـوْمِ إِنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [الأنعام:78] فـالآن ليس هنـاك مجـال للمجادلـة، فهذا الكبير وهذا الذي قد يُعظَّم، وقد ينظر إليه على أنه هو المسـتحق للعبـادة من دون الكـواكب الأخـرى غـاب، فأنا بريء منـه، وبـريء منكم ومن شـرككم: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ [الأنعام:79].

إذاً وجَّه إبراهيم الخليل وجهه لله الذي فطر السـماوات والأرض، والـذي خلق الشـمس والقمـر، والكـواكب، وخلق العبـاد هـؤلاء، وخلق المعبـودات المنحوتـات: أَتَعْبُـدُونَ مَا تَنْحِتُـونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ [الصـافات:95-96] كيف تنحته بيـدك وتعبـده، والله خلقـك، وخلق هـذا الصـنم المنحوت المعبود؟!

إذاً أعلن إبراهيم عليه السلام عبوديته للـه، فقـال: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَـرَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ [الأنعـام:79] فوجه وجهه، وتوجه بوجهه هو تعبير عن الاتجـاه الكلي، فهو لا يلتفت إلى غير الله، فالشرك التفات إلى غير اللـه، وإنما

يوجه وجهه إلى الله بالتوحيد الخالص.

إذن فالاتجاه إلى الله وتوحيد الله، هـذا هو ما فطن إليه إبراهيم عليه السلام، وألزم به قومه: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ [الأنعام: 80] فلم يسلم له قومـه، بل جـادلوه فيما قالـه، ولا بد من المحاجة والمجادلة: قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ [الأنعام:80] أي: أتحاجوني في اللـه، وهـذه المجادلة والمحاجة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد هداني، وعرفت التوحيد! وعـرفت أنه الواحد الأحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه المستحق للعبادة: وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الأنعام:80-81] فوصل الجدال والنقـاش بين إبـراهيم وقومه إلى هـذه النقطـة، حيث خوفـوه بالآلهة أنها سوف تنتقم منه، إذ كيف يكفر بمعبوداتهم.

والآن كثير من الناس إذا قلت: هـذا القـبر أو غـيره -مما يعبد من دون اللـه- لا يـذهب إليه ليستشـفى بـه، وهو لا يشفي، فإنهم يقولون: لا تذكره بسـوء، ولا تتكلم فيـه، لأنك لو ذكرته في غـير الخـير فسـينتقم منـك، فهم يحـاولون أن يخيفوا المؤمن الموحد، وهم على الشرك والعياذ بالله.

فإبراهيم عليه السلام يقول: أنا أخـاف، وأنتم لا تخـافون أنكم أشـركتم بالله ما لم يـنزل عليكم به سـلطاناً؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الأنعام:81]؟

فهنا فريقان، كل منهما يدعي أنه على الحـق، وأن الآخر يجب أن يخاف من معبوده: إبراهيم عليه السلام يقـول: أنا على الحق وربي اللـه، ويجب أن تخـافوا من الله تبـارك وتعالى، لأنكم مشركون، وقومه يزعمـون أنهم على الحـق، وأن آلهتهم هي الآلهة المعبـودة، ويخوفـون إبـراهيم عليه السلام بهذه الآلهة، فأي الفريقين أحق بالأمن؟

قال الله تبارك وتعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ * وَتِلْـكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِـهِ نَرْفَـعُ دَرَجَـاتٍ مَنْ نَشَـاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعـام:82-83] فهـذه فصـلٌ من الله تعـالى بين الفريقين.

فمن هو الآمن إذن؟

الإجابة صريحة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أن الـذين آمنـوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أن لهم الأمن وهم مهتدون.

ولقد سمعنا -كما في الشرح- أن رسول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت هذه الآية وقرأها على الصـحابة رضي الله عنهم شق عليهم ذلك، لأنهم يتـدبرون كتـاب اللـه، وإلا فنحن نقرأ هذه الآية، ولكن ربما لا نلقي لها بالاً أبـداً -والله المسـتعان- لكن هم لما سـمعوا الآيـة: { قـالوا: يا رسـول اللـه! أيُّنا لم يظلم نفسـه؟! } وكيف ننـال الأمن، وكيف ننـال الهدايـة، ونحن ظـالمون لأنفسـنا؟ فخـافوا وشق ذلك عليهم.

معـنى الظلم في قوله تعـالى : (وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ)

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ كما في حـديث عبد الله بن مســعود رضي الله عنه الـــذي في الصــحيح: {ليس بـــذاك } أي: ليس المقصـــود بـــالظلم في الآية الذنب.

وكلنا مـــذنبون وكل بـــني آدم خطـــاء، ولو لم نـــذنب فنستغفر الله لجاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوم غيرنا فيـذنبون ويستغفرون، وهذا من فضل الله.

ثم قال: {ألم تسمعوا إلى قـول العبد الصـالح: يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان:13] } وهـذا العبد الصالح هو لقمـان الـذي ذكـره الله تعـالى في سـورة

لقمان .

فتبين إذاً بهذا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم خافوا وظنوا أنه لا أمن ولا هداية إلا لمن يجتنب الذنوب.

وقـالوا: لا يمكن لإنســان ألا تقع منه ذنــوب، فطمــأنهم النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ بـأن قـال: إن هـذا الظلم هو الشرك.

ولم يلبسوا معناهـا: لم يخلطـوا، ولم يشـوبوا إيمـانهم -وتوحيدهم- وإخلاصهم بظلم.

إذاً المؤمنون الموحدون الـذين لم يخلطـوا هـذا التوحيد والإيمان، والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بشــرك: أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82] فلهم الأمن ولهم الاهتداء.

فاطمأنت نفوس الصحابة رضي الله عنهم بهذا.

لكن يضل هنـاك إشـكال قـائم، فلا بد أن يطـرح سـؤال وهـو: الـذي يـرتكب الـذنوب والمعاصي هل هو آمن ما لم يشرك؟

حكم الإنسان الموحد من أهل المعاصي

الإنســان الموحد الـذي ليس عنـده شـائبة من شـوائب الشرك لكن لديه معاصي وذنوب، فهل هذا آمن؟

الأمر فيه تفصيل، ولذلك شَـيْخ الإِسْـلامِ ابن تيمية رحمه الله يفصل لنا شيئاً من هذا:

قال الشـارح: ' ' قـال شَـيْخ الإِسْـلامِ رحمه الله تعـالى: والـذي شق عليهم: أنهم ظنـوا أن الظلم المشـروط عدمه هو ظلم العبد نفســـه، وأنه لا أمن ولا اهتـــداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما دلهم على أن الشـــرك ظلمٌ في كتـــاب اللـــه، فلا يحصل الأمن والاهتـداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهـذا الظلم، فـإن من لم

يلبس إيمانه بهذا الظلم كـان من أهل الأمن والاهتـداء، كما كـان من أهل الاصـطفاء في قولـه: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـابَ الَّذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِـالْخَيْرَاتِ بِـإِذْنِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَضْـلُ الْكَبِـيرُ [فاطر:32].

وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحـدهم بظلمه لنفسـه، بـذنب إذا لم يتب، كما قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَـرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [الزلزلة:7-8].

وقد سـأل أبو بكر الصـديق رضي الله عنه النـبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: {يا رسول الله! أيّنا لم يعمل سوءاً؟ فقـــال: يا أبا بكر ! ألست تنصـــب؟ ألست تحـــزن؟ أليس يصـيبك اللأواء؟ فـذلك ما تجـزون به } فـبين أن المـؤمن الــذي إذا مــات دخل الجنة قد يجــزى بســيئاته في الــدنيا بالمصائب.

فمن ســلم من أجنــاس الظلم الثلاثــة: الشــرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كـان له الأمن التـام والاهتــداء التــام، ومن لم يســلم من ظلمه لنفسه كـان له الأمن والاهتداء مطلقاً.

بمعنى: أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بــذلك في الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الـذي تكـون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

وليس مراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: {إنما هو الشرك } أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكـون له الأمن التــام والاهتــداء التــام، فــإن أحاديثه الكثــيرة مع نصــوص القرآن: تبين أن أهل الكبـائر معرضـون للخـوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التـام الـذي يكونـون بهما مهتـدين إلى الصراط المستقيم، صراط الـذين أنعم الله عليهم، من

غــير عــذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتــداء إلى هــذا الصــــــــراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: { إنما هو الشرك } إن أراد الأكبر فمقصـوده: أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعد به المشــركون، من عذاب الدنيا والآخـرة، وإن كـان مـراده جنس الشـرك، يقـــال: ظلم العبد نفســـه، كبخله - لحب المـــال - ببعض الواجب، هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله تعـالى، حـتى يقدم هـواه على محبة الله شـرك أصـغر، ونحو ذلـك، فهـذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الشرك بهذا الاعتبار، انتهى ملخصاً '.

أقول: كلام شَـيْخ الإِسْـلامِ عظيم جـداً، وقد لا نسـتوعب فهمه كله، ولكن نلخص القضايا الأساسية.

أولاً: نفهم أن الإنسان الذي يحقق التوحيد، والذي وعـده الله تبارك وتعالى بالأمن والاهتـداء، هو الـذي لم يلبس ولم يخلط إيمانه بظلم، ولا يعـني ذلك أن يحصل الاهتـداء التـام والأمن التام له إذا كان لديه معاصي وذنوب وكبائر.

لأن الأمن التام والاهتداء التام لا يكون إلا لمن سـلم من الشرك، ومن الذنوب والمعاصي.

وأما من حقق التوحيد وســـلم من الشـــرك -والآن نأخذ الشـرك على أنه الشـرك الأكـبر حـتى لا تختلط الأفهـام- ولكنه ارتكب الذنوب والمعاصي، فهل هذا آمن أم خائف؟

نقول: هذا له أمن ناقص، واهتـداء نـاقص، والـذي أنقص أمنه وأنقص اهتداءه هو الذنوب والمعاصي، فهي تــؤثر وإن كان محققاً ومسـتكملاً للتوحيـد، لأن لها أثـراً وعلاقـة، كما سنوضح ذلك إن شاء الله تبارك وتعالى.

ومن الذي ليس له أمن ولا اهتداء بالإطلاق؟

هو المشرك الذي أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة:72] فهذا ليس له أمن، ولا اهتداء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

إذاً من حقق التوحيد، وقام بحقوق التوحيد، بأداء الفرائض وترك ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ له الأمن والاهتداء التامين بإذن الله.

4 - درجات الناس في الأمن والاهتداء

والناس في ذلك درجات؛ لأن المؤمنين يتفاوتون ويتفاضلون، وليسوا سواء في الإيمان والتوحيد، فعندما خاف الصحابة الكرام، خافوا لأنهم يعلمون أن الإنسان لا يُصطفى ويُجتبى وليس له أمنٌ ولا اهتداء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [فاطر:32] وهم الصحابة رضي الله عنهم والمؤمنون، وأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامة، فهذه هي الأمة المصطفاة.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ [فاطر:32] أي: الدين والقرآن والنبوة، أورثها الله تعالى بعد بني إسرائيل، وبعد من ضل وكذَّب وجحد من الأمم، هذه الأمة المصطفاة، التي اختارها الله واصطفاها، ولكن هذه الأمة المصطفاة على مراتب، فما هي هذه المراتب؟

وهذه المراتب هي: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [فاطر:32] وهنا يأتي إشكال، وهو: كيف تكون هذه الأمة المصطفاة ثلاثة مراتب؟ وهل ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الناس يكونون أصنافاً ثلاثة أو ما يشبه ذلك في آية أخرى؟

نعم. في قوله تعـالى: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجـاً ثَلاثَـةً [الواقعـة:7] فحصل إشكال بين الصحابة، وليس بين الـذين من بعـدهم، في الثلاثة الأقسـام الـتي في سـورة فـاطر، هل هي الـتي ذكرها الله تعـالى في سـورة الواقعـة: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجـاً ثَلاثَـةً [الواقعــة:7] والأزواج الثلاثة الــتي في ســورة الواقعة هم السـابقون، وأصـحاب اليمين، وأصـحاب الشـمال، وهنا في هـذه الآية هم: فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَــابِقٌ بِــالْخَيْرَاتِ [فــاطر:32] ولن نــدخل في تفاصــيل الخلاف، لكن المهم أن من الصحابة من قال: إن الثلاثة هنا هي الثلاثة هناك، فـإذن أمة محمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ التي اصـطفاها الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى منهم الظـالم لنفسـه، وهذا هو الذي يقع في الشرك على هذا القول، والواقع في الشــرك هم من أصــحاب الشــمال، ومنهم المقتصد وهم أصحاب اليمين، ومنهم سابق بـالخيرات وهـؤلاء السـابقون في الواقعــة، إذن الثلاثة هنا هي الثلاثة هنــاك، ولكن هــذا قول مرجوح.

فعائشة رضي الله عنها لما سُــئلت قــالت: [[الظــالم لنفسه مثلي ومثلك وهـذا من تواضـعها رضي الله عنها]] ومعناه: أن الظـالم لنفسه هو المـذنب المقصـر، وحاشـاها رضي الله عنها أن تشـرك بالله أو أحد من الصـحابة، أو أن تقرَّ بالشـرك، لكن كلام عائشة رضي الله عنها هو الـراجح، وإن كــان ابن مسـعود رضي الله عنه قــال بــالقول الأول، وذلك بدلالة الآيات التي بعد هذه الآية في سورة فاطر، لما قال الله تبارك وتعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِــهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِــدٌ وَمِنْهُمْ سَــابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِـإِذْنِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَضْـلُ الْكَبِـيرُ * جَنَّاتُ عَـدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُـؤاً وَلِبَاسُـهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُـورٌ شَـكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَـةِ مِنْ فَضْـلِهِ لا يَمَسُّـنَا فِيهَا نَصَـبٌ وَلا يَمَسُّـنَا فِيهَا لُغُـوبٌ * وَالَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ نَـارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَـى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَـذَابِهَا

كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر:32-36].

إذاً لو قرأنا الآيـــــات فإننا نجد ولا ســـــيما بعد أن ذكر الطائفة الرابعة:َالَّذِينَ كَفَرُوا [فاطر:36] أن الصـنف الرابع ليس من الثلاثة الطوائف، وليس من الأمة المصـطفاة، لأنه قال: الَّذِينَ كَفَرُوا [فاطر:36].

إذاً المؤمنون ثلاثة أصناف، والكفار صنف واحد، وهــؤلاء لهم النار نسأل الله العفو والعافية.

فـإذاً الأقسـام الـتي في سـورة الواقعة ثلاثـة، لكنها في سورة فـاطر تكـون أربعـة، وهـؤلاء الأربعة نأخـذهم بحسب الفضل:

الدرجة الأولى: السابقون

أولاً: السابقون -وإن كانت الآية قـدمت أصـحاب اليمين- وهم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم، أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ولا بالذنوب والمعاصـي، فالسـابق هو الـذي يتقـرب إلى الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى بالنوافل بعد الفــرائض، وهــذا التفسير هو أحد المعاني للسابق وهو أجلاهـا، فهو كما قـال الله تبـارك وتعـالى في الحـديث القدسـي: {من عـادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقـرب إليَّ عبـدي بشـيء أحب إليَّ مما افترضــته عليه } فـأعظم شــيء نتقــرب به إلى الله هو فرائض اللـه، وبعد ذلـك: {ولا يـزال عبـدي يتقـرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه } فالـذين يـأتون بالنوافـل: كـذكر الله، والصدقات، والصلوات، والجهاد النافلـة، والإنفـاق في فعل الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر النافلة، وقد أتى بما عليه من الواجبـات، ولكنه يتطــوع بهــذا، فمن يأتي بالنوافل، ويجتنب الشـبهات، ويتـورع عن الحـرام، فهو قد أتى بدرجة أعلى من درجة الالــتزام بــالحلال والحـــرام والواجب والمنهي عنه.

إذاً هؤلاء هم السابقون.

توقف فهم المعـــاني المعـــبر عنها باللفظ على معرفة عينها

إن وجود الاقتران أو الاشتراك اللفظي هو سـبب ضـلال الفـــرق في معرفة الله ســبحانه وتعــالى، فالله ســبحانه وتعــالى خاطبنا ووصف نفسه بكلامنا ولغتنـــا، فهــذه اللغة أوهمت بعضــهم حــتى قــال: نحن لا نتصــور الاســتواء إلا بالشكل الحسي المعروف، ولا نتصـور النــزول إلا بالشـكل الحسي المعروف، وهو انتقال جسم من مكـان إلى مكـان، ولا نسـتطيع أن نتخيل اليد إلا جارحـة، ولا نتخيل السـمع إلا بأذن وصماخ ... الخ .

هـذا هو منشأ الخطأ في حق الله تبـارك وتعـالى، مع أن الله تعــالى أخبرنا عن الجنة أن فيها حــوراً عينــاً، وأن فيها أنهاراً من خمرٍ وأنهاراً من لبن وأنهاراً من عسل، وأن فيها فضةً وحريراً وذهباً، وأن فيها ولداناً وأشجاراً وثمـاراً، وغـير ذلك من أنواع النعيم الذي في الجنة، ومع ذلك نعتقد أن ما عنـــدنا من نعيم الجنة إنما هو الأســـماء، فنـــؤمن به مع اعتقادنا أنه يكون لأهل الجنة، ونرجوا الله -سبحانه وتعالى- أن نذوق هـذا النعيم، ونـؤمن أنه نعيم لا يشـبهه في الـدنيا، ولا يشــبهه شــيء مما تــراه أعيننا في الــدنيا، ولا يمكن أن تتخيل عقولنا وأذهاننا شيئاً يشبهه .

فكيف نقـــول: إننا لا نفهم من صـــفات الله -ســـبحانه وتعـالى- إلا ما نعلمه من صـفات المخلـوقين، وأنه يجب أن نؤولها وننفيها، فخفاء صفات الله سبحانه وتعالى عنا أعظم وأكـثر من خفـاء نعيم الجنـة، وكـذلك أحـوال يـوم القيامـة، وغير ذلك من العوالم الغيبية التي نعلمها.

فإن الشـبهة الكـبرى الـتي وقع فيها من أوّلَ في بـاب الصفات هي قولهم: إن الله أنزل هذا القـرآن بلغة العـرب، وخاطب العرب بما يفهمـون، ونحن لا نفهم من لغة العـرب

إلا أن اليد جارحـــة، وأن الـــنزول والمجيء هو الانتقـــال من مكان إلى مكان، وأن العين هي هذه الباصـرة، وأن الغضب ثـــوران القلب، والرحمة اســـتعطاف وانكســـار في القلب، وهـــذه شـــبهه كبـــيرة، ولكنها ليست بشـــيء عند أصـــحاب العقول السليمة والفطر القويمة .

فصفات الله سـبحانه وتعـالى جـاءت بلغة العـرب، فلو خوطبنا بشيء لا ندركه تماماً لما فهمنا أي شيء تماماً، فلا بد أن يكون هناك قدراً معيناً بين الألفـاظ الموضـوعة وبين المعـاني الـتي وضـعت لها الألفـاظ، وهـذا القـدر المعين لا يســتلزم بحـــال من الأحـــوال أن يكـــون كل من أطلق عليه اللفظ مساوياً للآخر في الحقيقة .

قـال الله سـبحانه وتعـالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَـانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَبْتَلِيـهِ فَجَعَلْنَـاهُ سَـمِيعاً بَصِـيراً [الإنسـان:2] وقـال سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ [الشـورى: 11] فالله -سبحانه وتعالى- له ســمع يســمع به وبصر يبصر به فيحيط به المسموعات والمرئيات والمبصرات.

فنســتطيع فهم الصـفات واللـوازم، وأما العين والحقيقة والذات فهـذه لا نسـتطيع أن نفهم كيفيتها أبـداً، فنـؤمن أن الله ســـميع وبصـــير، وأنه على العـــرش، وأنه يـــنزل، وأنه يغضـــب، وأنه يـــرحم، مع الاعتقـــاد بأننا لا نســـتطيع معرفة كيفية الغضب والرحمة والاسـتواء وسـائر الصـفات؛ ولهـذا عنـدما نفى علمـاء السـلف الكيف وقـالوا: نـؤمن بلا كيـف، ومعنـاه: إثبـات شـيء وبمعنـاه مع جهل كيفيتـه؛ لأنا إذا كنا ننفي نفس المعنى، فلا نحتاج أن نقـــول ليس له يد بلا كيف .

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

[واعلم أن المخـــاطب لا يفهم المعـــاني المعـــبر عنها

باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها، ويكون بينهما قـدر مشـترك ومشـابهة في أصل المعـنى، وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بدون هذا قط، حتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معـاني الألفـاظ المفـردة، مثل تربية الصـبي الذي يعلم البيان واللغة، ينطق له باللفظ المفرد، ويشار له إلى معناه إن كان مشهوداً بالإحساس الظاهر أو الباطن.

فيقـال لـه: لبن، خـبز، أم، أب، سـماء، أرض، شـمس، قمر، مـاء، ويشـار له مع العبـارة إلى كل مسـمى من هـذه المسـميات، وإلا لم يفهم معـنى اللفظ ومـراد النـاطق بـه، وليس أحد من بني آدم يستغني عن التعليم السـمعي، كيف وآدم أبو البشر أول ما علمه الله تعـالى أصـول الأدلة السمعية وهي الأسماء كلها، وكلمه وعلمه بخطـاب الـوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعـنى هي بواسـطة دلالته على ما عنـاه المتكلم وأراده، وإرادته وعنايته في قلبه فلا يعـرف باللفظ ابتداء. ولكن يعـرف المعـنى بغـير اللفظ حـتى يعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعنى بـه، فـإذا عـرف ذلـك، ثم سـمع اللفظ مـرة ثانيـة، عـرف المعنى المراد بلا إشارة إليه] إهـ

الشرح:

إن الألفـاظ وضـعت لتـدل على معـان معينـة، وهـذه المعاني لا بد أن يكون بينها وبين اللفظ قدراً مشتركاً ومن هنا كـانت اللغة محتاجة إلى التعليم السـماعي، ولـذلك لو عـاش طفل بين بعض الحيوانـات -كما في علم الاجتمـاع - وصار يرضع منها، ويعيش معها، فإنه لا يتكون لديه لغة، لأن اللغة سماعية، ولها مراحل .

الدرجة الأولى: وهي أبسط مراحل تعلم اللغة كـأن تشير للطفل وتقول: هذا جبل، هذا قمر، هـذا أب، هـذه أم. والطفل يرتبط في ذهنه المعنى بالإشـارة فيحفـظ، ولـذلك لو حفظ الطفل خطأ، وخاطب النـاس فسيشـير إلى الجبل

ويقول: هذا ماء؛ لأنه أخذها تعلماً سمعياً .

ولهذا يـذكر المصـنف -رحمه اللـه-: أنه لا يمكن لأحد أن يسـتغني عن السـماع، لأن أبانا آدم عليه السـلام علمه الله سـبحانه وتعـالى أسـماء كل شـيء، وعلمه كيف يطلق الأسماء على مسمياتها، الموضوعه لها .

والدرجة الأولى أقل درجـات الخطـاب ومعرفة المخـاطب، فـالمتكلم إذا كـان له معـنى في نفسه يريد أن يعـبر عنه ويشـرحه لغـيره، فأوضح شـيء في الشـرح أن يقول: لو سـألك أحد عن شـيء لا تعرفه تمامـاً فقـل: مثل هـذا، فاللفظ هنا يـدل على المعـنى الـذي فهم عن طريق الإشارة، فهذه الدرجة أدنى درجات الإفهام، ولو ذهب أحدنا إلى أي بلد من البلدان وأراد أن يتعلم لغة ما، لتعلمها بهـذه الطريقـة، بل حـتى في الكتب التعليمية تكتب الكلمـة، ويرسم شكلها جـوار الاسـم، فيعـرف أن المقصـود بالكلمة المكتوبة هي هذه الصورة .

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

[وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن مثل الجـوع والشـبع والـري والعطش والحـزن والفـرح، فإنه لا يعـرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه، فإذا وجـده، أشـير له إليـه، وعرف أن اسمه كذا. والإشارة تارة تكـون إلى جـوع نفسه أو عطش نفسه، مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له: جعت، أنت جـائع، فيسـمع اللفظ ويعلم ما عيَّنه بالإشـارة أو ما يجري مجراها من القرائن التي تعين المـراد، مثل نظر أمه إليه في حـال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحـوه أنها تعـني جوعه. أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره] إهـ.

الشرح:

الدرجة الثانيـة: هي الشـيء غـير المحسـوس كـالجوع والظمأ .

عندما يكون الشيء معقـولاً، وليس أمـراً مشـاهداً؛ فإنه يفهمه إذا أحس من نفسه هـــذا الشـــيء أو من غـــيره، واحتفت قرائن تدل على أن هذا هو الشـيء المـراد، فمثلاً. الطفل يفهم معـنى كلمة الجـوع أو العطش، إذا أحس في نفسه هذا الشيء ووجد أن أمه تقول: أنت جائع، فتقـدم له الطعـام أو الحليب، وفي كل مـرة يتكـرر هـذا العمـل، أو تقـول: أنت عطشـان، وتـأتي بالمـاء، فيقـترن في ذهنه أن الماء للعطش، وأن الطعام للجـوع، فيفهم أن هـذا الشـيء الذي ينشأ في داخله وهو الحاجة إلى لطعام يسمى جوعـاً، والحاجة إلى الشـراب تسـمى عطشـاً، فيفهم الطفل هـذا الشيء ويتلقاه، مع أنه غير مشـار إليـه، فهـذا النـوع عقلي باطني يدرك بالعقل، فعندما يرى الطفل إنساناً عليه ملامح التجهم والانقباض ويقول أبوه: هـذا غضـبان، ويـأتي إنسـان عليه علامات الانشراح والابتسـام فيقـول الأب: هـذا فـرح، يفهم الطفل أو غيره معنى كلمة غضبان، ومعنى كلمة فرح .

قال المصنف -رحمه الله تعالى:

[إذا عرف ذلك، فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان، فلا يخلــوا إما أن يكــون مما أدركها المخـاطب المســتمع بإحساسه وشـهوده، أو بمعقوله , وإما أن لا يكـون كـذلك، فـإن كـانت من القسـمين الأولين، لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة، بأن يكون قد عرف معاني الألفـاظ المفـردة ومعـنى الـتركيب، فـإذا قيل له بعد ذلـك: أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ [البلد:9،8] أو قيل لـه: وَاللَّهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصـارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْـــكُرُونَ [النحـــل:78] ونحو ذلـــك، فهم المخاطب بما أدركه بحسه. وإن كـانت المعـاني الـتي يـراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشـهده بعينـه، ولا بحيث صـار له معقول كلي يتناولها حـتى يفهم به المـراد بتلك الألفـاظ، بل هي مما لم يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة، فلا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبـار بما

بينه وبين معقــولات الأمــور الــتي شــاهدها من التشــابه والتناسـب، وكلما كـان التمثيل أقـوى، كـان البيـان أحسـن، والفهم أكمل .

فالرسول -صلوات الله وسلامه عليـه- لما بين لنا أمـوراً لم تكن معروفة قبل ذلك، وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينهــا، أتى بألفــاظ تناسب معانيها تلك المعــاني، وجعلها أسماءً لهـا، فيكـون بينها قـدر مشـترك، كالصـلاة، والزكـاة، والصوم، والإيمان، والكفـر. وكـذلك لما أخبرنا بـأمور تتعلق بالإيمـان بالله وبـاليوم الآخـر، وهم لم يكونـوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تـدل عليها بعينهـا، أخذ من اللغة الألفاظ المناسـبة لتلك بما تـدل عليه من القـدر المشـترك بين تلك المعـاني الغيبيـة، والمعـاني الشـهودية الـتي كـانوا يعرفونهــا، وقــرن بــذلك من الإشــارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المــــراد، كتعليم الصــــبي،كما قالربيعة بن أبي عبد الرحمن : الناس في حجـور علمـائهم كالصـبيان في حجـور آبائهم] ا. هـ

الشرح:

إذا أردت أن تــبين معــنى من المعــاني، فعليك باللفظ الــذي يعرفه النــاس إما معرفة حســية أو معرفة عقليــة، كالأمثلة التي ضربها المصنف ومنها قوله تعـالى: أَلَمْ نَجْعَـلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ [البلــد:9،8] فاللغة كفت لبيـان الأمور المحسوسة والمشـاهدة، كما تكفي لمعرفة الأشـياء المعقولة لــدى الإنســان، كــالعلم والرضا والجهل والكــرم والغضب وأمثــال ذلك من الأمــور غــير المشــاهدة، وهي معلومة بعقول بني آدم.

مثاله: لما قال النبي صلى الله عليه وسـلم للرجـل: (لا تغضب }   فعــرف الرجل معــنى: لا تغضــب؛ لأن الغضب معـروف لديه ولـدى غـيره من المخـاطبين، وكـذلك العلم والرحمة معروفة عند بني آدم .

ومن أمثلة ذلك أيضـاً: أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم بعثه الله سبحانه وتعالى بمعان جديـدة، كالصـلاة؛ فإنها في لغة العرب بمعنى: الدعاء، والزكاة في لغة العـرب بمعـنى: التطهير، والصيام عند العرب بمعنى: الإمسـاك، وكـذا الحج بمعنى: القصد إلى الشيء .

فلما جاء الشرع من عند الله -سبحانه وتعالى- وخـاطب النــاس بلغتهم: وَمَا أَرْسَــلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا بِلِسَــانِ قَوْمِــهِ [إبراهيم:4] عبر عن المعاني الجديدة التي لم يعرفوها قط عن طريق التمثيل والتقــريب، وكلما كــان المخــاطِب أبلغ كان بيانه أجلى، وتمثيله أعظم.

فأتى بالقدر المشترك، كالصلاة فطبقها النبي صـلى الله عليه وسلم أمامهم فبدأ بتكبيرة الإحرام، وانتهى بالتســليم، بما في ذلك من قراءة وركوع وسجود، وكــذلك الحج: قصد البيت الحرام وأداء النسك .

فقــربت هــذه المعــاني من جنس كلام العــرب حــتى يفهموها، وأصـبح الإنسـان بعد ذلك لا يفهم من الصـلاة أنها الـدعاء، وإنما يفهم منها الصـلاة المعروفـة، مع أن الصـلاة المعروفة الآن بأركانها لا تشبه في مـدلولها مجـرد الـدعاء، الـذي يعرفه العـرب في الجاهليـة، فخـوطب الإنسـان بما يؤديــه، ومن الممكن أن يفهمــه، فكيف بما يتعلق بالإيمــان بالله سـبحانه وتعـالى والآخـرة؟ وما يتعلق بـالأمور الغيبية المطلقة التي لا يعلمها الإنسان ولا يمكن أن يفهمها .

فلا بد أن هنــاك قــدراً مشــتركاً بين ما خــوطب به الإنسان، وبين حقائقها الغيبية، فمثلاً: النار أو جهنم -والعيـاذ بالله- إذا قرأها الإنسان في القرآن، فإنه يعلم أنها لا تشــبه نار الدنيا، لكن هناك قـدر مشـترك يجعل هـذه تشـبه هـذه، وكــذا الجنة وردت في القــرآن بمعــنى: الروضة الجميلــة، والبســتان -مثل أصـحاب الجنة في سـورة القلم وصـاحب

الجنـتين في سـورة الكهـف- وليست هي مثل جنة الخلـد، والعلاقة بين الطـــرفين أن فيهما نعيم ورخـــاء، وكلتاهما تستلذ وتستطاب، ومن أجل هذا القـدر المشـترك قـرب لنا اللفظ، وسميت الجنة لنفهم ونعرف أن فيها نعيم .

والذين أنكروا الصفات قـالوا: إن الجنة في كلام العـرب لا تعقـل، إلا أنه هـذا النخل والعنب والشـجر والمـاء، فجنة الآخرة مثلها، وهذه الجنة تفنى؛ لأنها أجسام معينة ونباتات، والنباتات من خواصـها ولوازمها الفنـاء، فـدخلوا في قضـايا عقلية قياسية بسبب قولهم: إن اللغة وضـعت هـذه اللفظة هكذا .

ونـرد عليهم: أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم يقـول عن نعيم الجنة:فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، وكما قال ابن عبـاس :(ما عنـدكم في الـدنيا مما في الجنة إلا الأسـماء) أي: الاشـتراك اللفظي فقط، فهذه جنة وهذه جنة، وهذا نهر وهذا نهـر، وهـذا خمر وهــذا خمــر، لا يعــني أن جنة الــدنيا كجنة الآخــرة، ولا أن أنهارها كأنهارهـا، ولا أن خمرها كخمرهـا؛ لكن لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفهمنا ويُعْلمَنا بهذه الجنة، وكانت مما لا ندركه بحواسـنا ولا بعقولنـا، خاطبنا بـأمر نعقله عن طريق التمثيل للتقريب .

وصفات الله سبحانه وتعالى أعظم من ذلك وأجل، فإن الله -سبحانه وتعالى- عليم، سميع، بصـير، رحيم، كما أخـبر عن نفسـه، فهنـاك قـدر مشـترك لفظي فقـط، بينها وبين صفات الإنسان، وهو أن الإنسان يـدرك المسـموعات الـتي تليق به، والله تبارك وتعالى يدرك المسـموعات الـتي تليق به، وهو سبحانه قد أحاط بكل شيء علماً، ولا يفوته شيء، ولا يعجزه شيء، بخلاف الإنسان فإن سمعه محدود.

وكــذلك البصر فإنه لا يخفى على الله -تبـارك وتعـالى- شيء، وأما الإنسان فبصره محدود.

فخوطبنا بهذه الكلمة من كلام العرب لكي نعرف حقيقة المعنى، ونميز بين هذا المعنى والمعنى الآخر، فكـون الله -سبحانه وتعالى- سميعاً غير كونه بصيراً، وكذلك الإنسان له سمع وبصر، وكونه سميعاً يفرق عن كونه بصيراً، فإذا قلت لك: هذا إنسان بصير، فإنك تفهم أن له عيناً يبصر بها.

وإذا قلت لك: هذا إنسان سميع، فإنك فهمت شيئاً آخـر، ولـذلك جـاءت الألفـاظ في القـرآن والسـنة لتـبين هـذه المعـاني، ونعـرف القـدر المشـترك البسـيط من إدراك المسموعات أو إدراك المبصـرات، ولكن ليس الإدراك مثل الإدراك، أما حقيقة الـــذات المعـــني بها اللفظ فلا يمكن إدراكهـا، ولا يمكن للعقـول أن تتخيلها أو تتوهمهـا، لأنك لا تسـتطيع أن تتخيل ما هو أهـون من ذلـك، وهو نعيم الجنة الذي هو أقل من ذلك بكثير .

فالدرجة الثالثـة: إذاً هي درجة الأشـياء الـتي لا تـدخل تحت معرفة البشر الحسـية أو العقليـة، ولكن الخطـاب يكون بما يماثلها ليقربها، وكلما كان البيـان أكمل كلما كـان تقريب المعنى لديه أعظم .

وهذا يستعمل حتى في الأشياء البشرية المسـتجدة؛ فلو أن هناك جهازاً أخترع، وتريد أن تعرفه لإنسان وتشرحه له، وهو لم ير هـذه الآلة من قبـل، ولم يفكر فيهـا، فتضـرب له مثلاً وتقول: هذه الآلة مثل الطائره -مثلاً- ليعرف أو يتصـور شيئاً معيناً يميز به هذا الشيء، فإذا أريته الآلـة، وقلت لـه: هذه الآلة التي كنت أشرحها لك، فإنه سيجد شيئاً غريبـاً لم يخطر على بالـه، والـذي خطر على باله أولاً إنما هو شـيء يميز به هذه عن غيرها.

وهــذا هو فائــدة الاسم في اللغة العربيــة، أن يمــيز به الشــيء عن الآخــر، فالأســماء توضع للتميــيز بين الأشــياء فقط، فهذا أحمدُ، وهذا عليٌ وهكـذا، ولكن قد يكـون هنـاك

شخصـــان كلاهما اســـمه علي، وتختلف حقيقة كل منهمـــا، فالألفاظ تأتي للتقريب والدلالة، وأسماء الله تعالى وصفاته وضعت لها ألفاظ ليميز بعضها عن بعض.

وكـــذلك القـــدر المشـــترك اللفظي بين ما وصف الله -ســـبحانه وتعـــالى- به نفســـه، وما وصف به خلقه من بـــنى الإنســـان، أمر معقـــول في كل ذهن، لا في الحقيقة والواقع والذوات؛ فليس هناك أي تشابه على الإطلاق .

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة، فقد يكـــون مما أدركوا نظـيره بحسـهم وعقلهم، كإخبـارهم بـأن الـريح أهلكت عـــاداً، فـــإن عـــاداً من جنســـهم والـــريح من جنس ريحهم، وإن كانت أشـد، وكـذلك غـرق فرعـون في البحـر، وكـذا بقية الأخبـار عن الأمم الماضـية. ولهـذا كـان الإخبـار بذلك فيه عبرة لنا، كما قال تعالى: لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصصِـهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [يوسف:111] وقد يكون الذي يخـبر به الرســـول مما لم يـــدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجـــه، لكن في مفرداته ما يشـــبه مفـــرداتهم من بعض الوجـــوه، كما إذا أخـــبرهم عن الأمـــور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر، فلا بد أن يعلمـوا معـنى مشـتركاً وشـبهاً بين مفردات تلك الألفـاظ وبين مفـردات ألفـاظ ما علمـوه في الدنيا بحسهم وعقلهم.

فإذا كان ذلك المعنى الـذي في الـدنيا لم يشـهدوه بعـد، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغـائب، أشـهدهم إيـاه، وأشـار لهم إليـــه، وفعل فعلاً يكـــون حكاية له وشـــبهاً بـــه، يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقـائق المشـهودة هي الطريق الـتي يعرفـون بها الأمـور الغائبـة، فينبغي أن تعـرف هـذه الدرجات:

أولها: إدراك الإنسان المعاني الحسية المشاهدة.

وثانيها: عقله لمعانيها الكلية.

وثالثها: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسـية والعقلية.

فهذه المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب.

فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة، فلا بد من تعريفنا المعاني المشـتركة بينها وبين الحقـائق المشـهودة والاشـتباه الـذي بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة، ثم إن كانت مثلهـا، لم يحتج إلى ذكر الفـارق، كما تقـدم في قصص الأمم، وإن لم يكن مثلها، بين ذلك بذكر الفـارق، بـأن يقـال: ليس ذلك مثل هــذا، ونحو ذلــك، وإذا تقــدر انتفــاء المماثلة كــانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفـارق، وانتفـاء التسـاوي لا يمنع منه وجـود القـدر المشـترك الـذي هو مـدلول اللفظ المشـترك، وبه صـرنا نفهم الأمـور الغائبـة، ولـولا المعـنى المشترك ما أمكن ذلك قط] إهـ

الشرح:-

لكي نفهم هـــذه المـــراتب الثلاث: المعرفة الحســـية، والمعرفة العقلية، ومالا يدخل تحت الحس أو العقل، ينبغي أن نعــرف الــرد على الــذين ينفــون صــفات الله ســبحانه وتعالى ويقولـون: الألفـاظ الموضـوعة لا يفهم منها إلا هـذا الشـــيء، فنحن لا نفهم من اليد إلا الجارحـــة، ولا نفهم من النزول إلا الانتقال،ولا نفهم من المجيء إلا الانتقال وهكـذا، فنقول: ما أتفه هذه العقول وما أضـلها، يقـول تعـالى:لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ [الشـورى:11] فنحن لا نستخدم أي لفظ لم يأت به الشـرع، بل هـذا دليل على أن التشبيه في قلوبنا إن استخدامنا غير الألفاظ الشـرعية، أما علماء الكلام ونفاة الصفات ففي قلـوبهم وأنفسـهم تشـبيه

فهم يحرفون كلام الله، ويضيفون إليه ما لم يضفه .

مجيء النفي في صفات الله إنما هو لكمال ضدها

قال الطحاوي رحمه الله:

[ولاشيء يعجزه].

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[لكمال قدرته، قال تعالى:إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:20]: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً [الكهف: 45]وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [فاطر:44]وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:255] .

لا يؤده أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه. فهذا النفي لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله تعالى: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف:49]، لكمال عدله،لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ [سبأ: 3] لكمال علمه. وقوله تعالى: وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ [ق: 38] لكمال قدرته. لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ [البقرة:255] لكمال حياته وقيوميته.لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعام:103] لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، ألا يرى أن قول الشاعر:

قُبَيِّلة لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله: "قُبيلة" عُلم أن المراد

عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم، وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عـدد ليسـوا من الشر في شيء وإن هانا

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يـدل على ذمهم، عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضاً.

ولهـذا يـأتي الإثبـات للصـفات في كتـاب الله مفصـلاً، والنفي مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المـذموم، فـإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل.

يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شـخص ولا جـوهر ولا عَـرَض ولا بـذي لـون ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بـذي حـرارة ولا بـرودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طـول ولا عـرض ولا عمق ولا اجتمـاع ولا افـتراق ولا يتحـرك ولا يسـكن، ولا يتبعض، وليس بـذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين ولا شـمال وأمـام وخلف وفـوق وتحت، ولا يحيط به مكـان ولا يجـرى عليه زمـان، ولا يجـوز عليه المماسة ولا العزلـة، ولا الحلـول في الأمـاكن، ولا يوصف بشـيء من صـفات الخلق الدالة على حـدوثهم، ولا يوصف بأنه متنـاهٍ، ولا يُوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهـات، وليس بمحـدودٍ، ولا والد ولا مولود، ولا تُحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار... إلى آخر ما نقله أبو الحسن الأشـــــعري رحمه الله عن المعتزلة .

وفي هـذه الجملة حق وباطـل، ويظهر ذلك لمن يعـرف الكتاب والسنة. وهـذا النفي المجـرد مع كونه لا مـدح فيـه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسـلطان: أنت لست بزبـال ولا كساح ولا حجام ولا حائـك، لأدبك على هـذا الوصف وإن كنت صـادقاً، وإنما تكـون مادحـاً إذا أجملت النفي، فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتـك، أنت أعلم منهم وأشـرف

وأجل، فإذا أجملت في النفي، أجملت في الأدب]ا.هـ.

الشرح:-

يقول الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى:
[ولا شيء يعجزه].

فقال المصنف رحمه الله تعالى: [لكمال قدرته... إلخ ....]

وهذا من دقيق فهم ابن أبي العز "الشارح" رحمه الله، وهو أن الله -سبحانه وتعالى- إذا وصف بنفي شيء، فإنما يكون لكمال ضده، فكل آية فيها نفي يأتي بعدها ما يدل على الكمال،كما قال:وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب [ق:38] وذلك لكمال قدرته سبحانه وتعالى في خلق السماوات والأرض، وقال: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْم [البقرة:255] لكمال حياته وقيوميته التي وردت في أول الآية، وقال: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ [الأنعام:103] أي: لكمال جلاله وعظمته أن يحيط بها أي شيء .

فالنفي الصرف المطلق لا يقتضي المدح، أي: لا مدح فيه في لغة العرب، قال أحد الشعراء يهجو قبيلة:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فهذا ليس مدحاً لهم، وإنما أراد أن يقول: إنهم ضعفاء عاجزون لا يؤذون أحداً لضعفهم، ولا يغدرون إذا عاهدوا، ولا يظلمون الناس ولو حبة خردل لضعفهم وجبنهم، كما قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أي: أن هنـاك علـة، كعـدم قـدرة أو خـوف، وذلك لأن الظلم من شيم النفوس، وهـذا هو المعـنى الجـاهلي، وكما قال آخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عـدد   ليسـوا من الشر في شيء وإن هانا

كـــأن ربك لم يخلق لخشيتـــه   ســـواهم من جميع الناس إنسانا

أي: كأن الله لم يخلق أحداً يخافه إلا قومــه، ينفي عنهم الشـــر، وهــذا ليس مــدحاً لقومــه، بل يهجــوهم ويتهمهم بالضعف والخور والجبن والعجز .

فالله سبحانه وتعالى وهو أعظم من يُوصف ويُثـنى عليه الثناء اللائق بجلاله، لا يوصف بمجرد السلوب .

فلا نقـول: لا يظلم فقـط؛ وإنمـا: لا يظلم لكمـال عدلـه، والـذين يصـفون الله بـالنفي المجـرد فقط فقد وقعـوا في ضلال في صفات الله سـبحانه وتعـالى، ووقعـوا في إسـاءة الأدب مع الله سبحانه وتعالى .

فلو دخل أحد على ملك وأراد أن ينزه الملك، فقال: أيها الملك أنت لست بزبال، ولا كناس ولا طباخ، ولا حجام، فإن الملك سـيؤدبه، والنـاس سيسـخرون منه ويقولـون: الملك في درجة عالية وأنت تخاطبه هكـــذا، فتنفي عنه أشـــياء حقيرة .

فكيف يوصف مالك الملـوك بصـفة سـلبية أو إضـافية، فيقولون: ليس بجاهـل، أو يقولـون: له علم، أو عنـده علم، فيضيفون له العلم، ولا يقولون: إنه عليم .

لأنه يخيل إليهم أنهم إذا قـالوا: "عليم"، أنهم قد أثبتـوا شيئاً فيه تشبيه، أما إذا قـالوا: "ليس بجاهـل" فهـذا مجـرد نفي ولا يقتضي إثبات شيء .

وقد ذكر المصنف رحمه الله ألفاظاً كثـيرة جـداً فقـال عنهـا: فيها حق وباطـل، فقـولهم: ليس بجسم ولا شـبح ولا جثة ولا صـورة ولا لحم ولا دم، هـذه نفيها حـق، وقد يكـون فيها باطل، كما نفوا عن الله صـفة ثابتة له بقـولهم: وليس فـوق، وأما قـولهم: وليس بـذي أبعـاض وأجـزاء وجـوارح وأعضاء، فهذه توهم الباطل؛ فإنهم يريدون بقـولهم هـذا أن يوهموا ويجعلوا الصفات من باب الأعضاء والجوارح.

وكقـولهم: الحمد لله الـذي تـنزه عن الزمـان والمكـان، وأصـرح منـه: ولا يسـأل عنه بـالأين، فهـذا كله باطـل؛ لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم وهو أعـرف الخلق بالله سـأل الجارية(أين اللـه؟ } ، وقـولهم: ولا والد ولا مولـود، هـذا حق كما جـاء في كتابه سـبحانه وتعـالى، فبعض كلامهم في النفي حق، وبعضه باطل، وبعضه يوهم الباطل أو قد يـؤدي إليه .

وأما في الثناء والمدح والإثبات فإننا نفصـل، كما فصل الله ورسوله، فالآيات والأحاديث في الإثبات مفصلة، فيخبر الله سـبحانه وتعـالى عن نفسه بأخبـار مفصـلة، كما في أواخر سـورة الحشـر، وآية الكرسـي، والفاتحـة، والإخلاص ونحو ذلـك، وأما النفي فإنه مجمـل، كما قـال تعـالى: هَـلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً [مريم:65] وهو استفهام بمعـنى النفي، وهو نفي مجمـل، وقـال تعـالى:لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُواً أَحَدٌ [الإخلاص:3-4] .

وأما لفظ: الجوهر والعرض والرطوبة والحرارة والعمق والارتفاع ونحوها.

فهذا من إساءة الأدب مع الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل

على أن المعطلة هم في أصلهم مشبهة، وأن تعطيلهم نابع من التشبيه، فشبهوا الله بفهمهم ثم نفوا ما فهموه، فعندما قالوا: ليس بذي حـرارة ولا رطوبـة، كـان هـذا ما توهمـوه، وأن إثبـات أسـماء الله وصـفاته يسـتلزم حـرارة ورطوبة وطـولاً وارتفاعـاً، ثم قـاموا بنفي ما فهمـوه، فالقاعـدة المهمة في باب الصفات عند أهل السنة والجماعة أن نثبت لله سـبحانه وتعـالى الصـفات إثباتـاً مفصـلاً، وننفيها نفيـاً مجملاً .

سبيل أهل السنة هو التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

[والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهيـة، هو سبيل أهْل السُّنّةِ وَالْجَمَاعَـةِ . والمعطلة يعرضـون عما قاله الشـارع من الأسـماء والصـفات، ولا يتـدبرون معانيهـا، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده.

وأما أهل الحق والسـنة والإيمـان فيجعلـون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده، والذي قاله هَـؤُلاءِ إما أن يعرضـوا عنه إعراضـاً جمليـاً، أو يـبينوا حاله تفصـيلاً، ويحكم عليه بالكتـاب والسـنة، لا يحكم به عَلَى الكتاب والسـنة. والمقصـود: أن غـالب عقائـدهم السُـلوب، ليس بكذا، ليس بكذا.

وأما الإثبات، فهو قليل، وهي أنه عالم قـادرٌ حيٌ، وأكـثر النفي المـذكور ليس متلقى عن الكتـاب والسـنة ولاعن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات، فـإن الله تَعَـالَى قَـالَ: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ [الشورى:11] ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي، ففهم أن المـراد انفـراده سـبحانه بصـفات الكمـال، فهو سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى موصـوف بما وصف به نفسـه، ووصـفه به رسـله،

ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله، مما أخبرنا به من صـــفاته، وله صـــفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، كما قال رسوله الصادق صلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ في دعـــاء الكـــرب: (اللهم إني أســـألك بكل اسم هو لك سميت به نفسـك، أو أنزلته في كتابـك، أو علمته أحـداً من خلقــك، أو اســـتأثرت به في علم الغيب عنــدك، أن تجعل القُــرْآن العظيم ربيع قلــبي، ونــور صــدري، وجلاء حــزني، وذهاب همي وغمي} .

وســيأتي التنبيه عَلَى فســاد طـريقتهم في الصـفات إن شاء الله تعالى.

وليس قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: [ولا شـيء يعجـزه] من النفي المـذموم، فـإن الله تَعَـالَى قَـالَ: وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِـزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَـانَ عَلِيماً قَدِيراً [فاطر:44].

فنبه سُـــبْحَانَهُ وَتَعَـــالَى في آخر الآية عَلَى دليل انتفـــاء العجز، وهو كمـال العلم والقـدرة، فـإن العجز إنما ينشأ إما من الضـعف عن القيـام بما يريـده الفاعـل، وإما من عـدم علمه بـه، والله تَعَـالَى لا يعـزب عنه مثقـال ذرة، وهو عَلَى كل شـــيء قـــدير، وقد علم ببدائه العقـــول والفطر كمـــال قدرته وعلمـــه، فـــانتفى العجـــز، لما بينه وبين القـــدرة من التضاد؛ ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهـاً، تَعَـالَى الله عن ذلك علواً كبيراً]اهـ.

الشرح:

قاعدة أهْل السُّنّةِ وَالْجَمَاعَةِ في الأسماء والصفات أنهم يثبتـون ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رســوله صــلَّى اللــهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إثباتاً مفصـلاً، وينفـون نفيـاً مجملاً، وأما طريقة أهل البدع فإنهم ينفون نفيـاً مفصـلاً، ويثبتـون إثباتـاً مجملاً، والجهمية والباطنية الغلاة والمتفلسفة ينفون جميع الصفات

ويوافقـون في إثبـات صـفة واحـدة وهي الوجـود، وكلامهم خارج عن الكتاب والسنة؛ لأنه لم يـرد فيهما الاقتصـار عَلَى النفي فضلاً عن النفي بالسلب فقط، وكذلك هو خـارج عن الطــرق العقلية الــتي يتخــذها بعض مثبتة الصــفات -أي: الطرق العقلية التي سـلكها الأشـاعرة في إثبـات الصـفات السبع- بل بعضهم يقول: لا نقـول موجـود، بل نقـول: ليس بمعدوم فقط، فهم لا ينفون إلا بالسلب.

وبعضهم يقول: موجود، ويسميه واجب الوجود.

فيُقَـالُ لهم: إذا أثبتم وجـوداً لا يشـبه وجـود غـيره وهي صفة ثبوتية، فكذلك أثبتوا له استواءً لا يشبه اسـتواء غـيره، ويداً لا تشبه يد غيره، وهكذا في جميع الصفات.

وفي هـذا الحـديث دعـاء عظيم فمن دعا بهـذا الـدعاء فكأنما دعا الله باســـمه الأعظم؛ لأنه يقـــول: (اللهم إني أسـألك بكل اسم هو لـك، سـميت به نفسـك، أو أنزلته في كتابــك، أو علمته أحد من خلقــك، أو اســتأثرت به في علم الغيب عنـــدك... إلخ) وفي الجملة الأخـــيرة يـــدخل الاسم الأعظم وإن كَانَ ورد أنه في آية الكرسي أو نحو ذلك، لكن حقيقة الاسم الأعظم، أو حقيقة أن لله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَـــالَى صـفات وأسـماء لا نعلمهـا، هـذه ثابتة بنص هـذا الحـديث، ولـذلك فـإن الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى يثبت له ما أثبت لنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبعض صفاته التي لم يخبرنا بهــا، فاعتمادنا عَلَى ما ثبت به الدليل وليس للعقل أو غيره مجال في ذلك ، ثُمَّ عاد المُصنِّفُ معقباً عَلَى قول الإمـام الطّحـاويّ الـذي هو جـزء من الآية "لا يعجـزه شـيء" وهل يـدخل في النفي المحض أم لا؟ ونحن نقول: لا يدخل في ذلك لأن هـذا جـزء من الآية، الـتي في آخر سـورة فاطروَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِـزَهُ مِنْ شَــيْءٍ فِي السَّــمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَـانَ عَلِيمــاً قَدِيراً [فاطر:44] ويكون العجز من الإِنسَان بســبب الجهل وقد يكــون عالمــاً بالشــيء؛ لكنه لا يقــدر عليــه، أما الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فإنه نفى عن نفسه العجــز، وأثبت العلم

والقدرة، فمن كَـانَ لديه كمـال العلم وكمـال القـدرة -وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فإنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الدرجة الثانية: المقتصد

ثانيـــاً: المقتصـــد: وهو وســـط، ليس من الظـــالمين لأنفسهم، ولا من السابقين بالخيرات.

والمقتصد هو: الذي يأتي بالواجبات، ويجتنب المحرمات، لكن لا يزيد على ذلك بالنوافل، ولا يجتنب المكروهات التي إن تركها العبد فهو مـأجور، وإن فعلها فهو غـير آثم، فهـذا درجة أقـل، فهو إنســان مقتصد يعمل الطاعـات، ويـؤدي فـرائض الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، ويقـوم بما أمر اللـه، لكن لا يسابق ولا يسارع بالخيرات.

ففرق بين إنسـان يـؤذن المـؤذن فيكف عن عمله الـذي بيـده ويـأتي إلى بيت الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فهو إنسـان إذا سمع ذكر الله جاء إليه من أي مكـان، وسـابق إليـه، وزاحم بـالركب، ليسـتمع ذكر الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، وليســارع بالخيرات، وهذا هو السابق، وبين من يـؤدي ما افترضه الله عليه ويكتفي بـه، وما عـدا ذلك يتركه للسـابقين، فهـذا هو المقتصد.

الدرجة الثالثة: الظالم لنفسه

ثالثاً: الظالم لنفسه: وهو الذي يترك بعض الواجبات -ولا نقول كلها- ويرتكب بعض المنهيات وبعض المحرمات.

فهذه هي الأقسـام الثلاثـة،وهي في المؤمـنين وفي أهل التوحيد، فكيف يكون أمنهم واهتداؤهم؟

حـتى نربط هـذه الآيـات بآية الأنعـام الـتي هي موضـوع

الباب: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82].

نقول: أكملهم أمناً واهتداءً هم: السابقون، ثم المقتصد، وأما الظالم لنفسه فهو على خطر، وإن كان له أمن، ونجزم نحن أنه سيحصل له بإذن الله، أما ما عدا ذلك فهو تحت مشيئة الله، فالأمن المؤكد له بما أنه موحد، والكلام هذا عن الموحد الذي اجتنب الشرك، أنه مجزوم ومقطوع له بأنه لا يخلد في النار إن دخلها، ولكن هل يأمن أول الأمر؟ وهل يأمن يوم الفزع الأكبر؟ وهل يأمن عندما تنشر الصحف؟ وهل يأمن عند عبور الجسر؟

كله هذا الله أعلم به، فهو تحت مشيئة الله، لكن الشيء الذي نجزم به؛ أنه لا يخلد في النار، ولا يمكن أن أحداً من أهل التوحيد يخلد في النار -بإذن الله- إن دخلها.

فهذا هو فضل التوحيد، فالباب: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وهذا فضل عظيم، وهو أقل الفضل الذي هو مقطوع به -وما قبله قد يأتي إن شاء الله أيضاً- لأن المؤمنين الموحدين لا يخلدون أبداً في النار، بل من دخلها يخرج بشفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبشفاعة الشافعين من الملائكة، وعباد الله الصالحين، والشهداء، وكل من أذن الله له أن يشفع، حيث يأمر الله تبارك وتعالى الملائكة أن يخرجوا من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم مرة ثانية يأمرهم أن يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، وفي المرة الثالثة يُخرج من النار من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان.

وهؤلاء -نسأل الله العفو والعافية- هم أهل أمن في النهاية، ولكن بعد سكرات الموت، وبعد الحساب الشديد في القبر، وبعد الموقف يوم القيامة والأهوال، وبعد عبور الجسر والوقوع والسقوط منه في النار -نسأل الله العفو

والعافية- بعد آماد الله يعلمها، وهذا خطر عظيم ولا شك؛ حتى لا نستهين بالذنوب.

لكن نقول: التوحيد يظل له فضله وأهميته حيث أنهم في النهاية يخرجون.

وهنا سؤال وهو: كيف يعرفهم الشفعاء، إذا أذن الله سبحانه للشافعين أن يشفعوا، فيخرجون أهل النار الموحدين منها، والنار فيها الكفار وفيها العصاة من الموحدين، فكيف يميز المؤمن من الكافر؟

بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا فقال: {يعرفونهم بأثر السجود } فأثر السجود واضح في جباههم، وهذا يعني أن الذي لا يصلي لا ينجو، فعلى هذا الحديث وأدلة أخرى كثيرة -لكن نأخذ العبرة الآن من هذا الحديث- يكون تارك الصلاة الذي لا يصلي ولا يسجد لله، من أين له أثر للسجود؟ لا أثر فيه للسجود، إذاً فلا يعرف، ولا يشفع له الشافعون، وقد قال الله حاكياً مقالهم في النار: قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر:43-48] نسأل الله العفو والعافية.

فتارك الصلاة ليس بمسلم، وليس بمؤمن، ولا تنفعه شفاعة، فتارك الصلاة إذاً داخل فيمن لبس وغطى وشاب إيمانه بظلم، بمعنى الظلم الأكبر، وهو الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا ليس له أمن ولا اهتداء مطلقاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهو مثل فرعون وهامان ، ومثل عباد الأصنام، وعباد الطواغيت، مثله مثلهم، سواء بسواء، لا علامة للسجود لديه ولا أثر، ولذلك فإنه يُحرم من شفاعة الشافعين.

أما أهل الشفاعة فهم أصحاب الذنوب التي دون ذلك،

وإن كانوا متوعدين بالنار، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يشفِّع فيهم، ما داموا من أهل التوحيد، ولم يصل بهم الذنب إلى ترك الصلاة أو إلى الكفر، وذلك كالذين توعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنار -في القرآن مثلاً أو في الأحاديث- من أصحاب الذنوب والمعاصي،كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً [النساء: 10].

وكذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً [الفرقان:68-69] إذاً الزنا من الذنوب المتوعد عليها بالنار وقتل النفس وشرب الخمر إلا من تاب، فنقول: من تاب من شرك أكبر، أو شرك أصغر، أو بدعة، أو معصية، ولو كانت ذنوبه تبلغ عنان السماء، أو مثل الجبال، إذا تاب، تاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه وغفر له، ولقي الله كمن لا ذنب له، لكن كلامنا فيمن يلقى الله وهو بهذه الحالة بدون توبة، فهؤلاء هم الذين يكونون من أصحاب الوعيد، بمعنى أنه متوعد بها، وقد يدخل وقد لا يدخل.

فمثلاً: إنسان أكل مال يتيم، أو زنى، أو سرق، أو شرب الخمر، أو فعل أمراً موبقاً -كبيرة من الكبائر- فنقول: فاعل هذا الذنب متوعد بالنار، وهو من أهل الوعيد، لكن لا نقطع أو نجزم بأنه سيدخل النار، ولا نقول عن رجل معين: إن الله لا يغفر له، وإنه لا بد أن يدخل النار.

لأن الأعمال يوم القيامة توزن عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونحن لا ندري لعل هذا الإنسان له أعمال صالحة لا نعلمها، فنحن نعلم أنه فاعل لهذا الذنب، ولذلك نعظه ونخوفه بعذاب الله من هذا الذنب، وإذا عُلم أنه مات وهو مصر على هذا الذنب نخاف عليه منه، ونقول: إنه داخل في هذا الوعيد، لكن لا نعلم الحقيقة، لأنه قد يكون له صدقة لا

نعلمها، وقد يكـون له أمر بمعـروف ونهي عن منكر نحن لا نعلمه، وقد يكون له محافظة على الصلاة... وهكذا.

لأن الإنسـان تجتمع فيه الطاعة والمعصـية، وهـذه من عجائب الإنسان.

فرب إنسان مقيم لحدود الله، وفـرائض اللـه، ومشـتغل بطاعة اللـه، ويفعل فاحشة وموبقة -نسـأل الله العفو والعافية- وهذا واقع.

ورب إنسـان وقعت منه هـذه الفاحشـة، واشـتهر بهـا، وعـرف عند النـاس بهـا، وله طاعة لله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى لا يعلمها الناس، يتقرب بها ويعملها، فربما في الميزان تـرجح هـذه الطاعة بتلك المعصـية، مثل البغي الزانية من بـني إسرائيل الـتي ذكر النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قصـتها، والـتي غفر الله لها لأنها سـقت الكلب، ففي كل ذات كبد رطبة أجر، فأي مخلوق وأي حيوان له كبـد؛ حـتى وإن كـان الكلب فيه أجر الصـدقة، والصـدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النـار، فهـذه بغي زانيـة، لكنها لما رأت الكلب يلهث، أخـذت خفها وملأته بالمـاء وسـقته فشـكر الله لها وغفر لها، سبحان الله!

فالزنا لا تخفى شناعته وبشاعته: إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتـاً وَسَـاءَ سَـبِيلاً [النسـاء:22] لكن مع الإخلاص لله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى بصـدقة أو باسـتغفار أو بـذكر أو بعمل من أعمـال الخير، قد لا يلقي له الإنسـان بـالاً، أو كلمة حق قد لا يلقي لها بـالاً، يرفعه الله بها درجـات، وتكفر عنه من الخطايا والذنوب ما لا يخطر له على بال، كما إن الإنسان قد يقـول الكلمة من سـخط اللـه، ومن غضب اللـه، لا يلقي لها بـالاً كاستهزاء بالدين، أو استهزاء بأهل الدين تهوي به في النـار سبعين خريفاً -نسأل الله العفو والعافية-.

فنقـول: مـذهب أهل السـنة والجماعة أنهم يرجـون

للمحسن الثواب، ويخافون على المذنب والمسيء العقاب، لكن لا يقطعون لهذا بالجنة ولا يقطعون لهذا بالنــار، إلا من جاء الدليل صريحاً فيه أنه من أهل النـار، فنقطع له بـذلك، أما الباقون فـنرجو للمحسـنين منهم الثـواب، ونخـاف على المسيئين منهم العقاب.

فـإذاً عرفنا أن هـؤلاء الثلاثـة: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُــوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ [الأنعـام:82] فهؤلاء لهم نصيب من الأمن إن شاء اللــه، والفضل كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن وفقهم للتوحيد، وحصول الأمن إما كليـاً أو جزئياً سببه التوحيد، وأنهم ليسوا من أهل الشرك.

أما من كــان من أهل الشــرك، وأشــرك بالله الشــرك الأكبر، فهذا باتفاق أهل السنة أنه لا أمن له ولا اهتداء.

الكلام على تسمية بعض السلف الذنوب شركاً

وبقيت القضية الأخـيرة الـتي ذكرها شَـيْخ الإِسْـلامِ وهي أن بعض الســلف لم يحصــروا اسم الشــرك في الشــرك الأكبر، فالذي يشرب الخمر -وهذا ليس مشـركاً ولا يسـمى مشـركاً بمجـرد أنه يشـرب الخمر أو يـزني أو يـرتكب أي محرم- يسميه بعض السـلف مشـركاً، باعتبـار أنه اتخذ إلهه هواه، ويعدون ذلك نوعاً من الشرك.

وهـذا بلا ريب أنه يجـرح ويقـدح في كمـال توحيـده، لأن الموحد التوحيد الكامل لا يــأتي منه هــذه الفعــال، فالــذي يفعل ذلك فإنه يقـدح في كمـال توحيـده وإيمانــه، فلـذلك بعض السـلف يسـمي اتبـاع الهـوى شـركاً، ويقـول: إنه من الشرك، فعلى هذا المعنى يكون شركاً أصغر، ويقابل عندنا نحن الظـالم لنفسـه، فيبقى أن كلمة الشـرك في محلهـا، وإن كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: {ليس بـذاك } أي: ليس الشرك، ولكن فهم السلف الصالح ، أنه الشــرك، وليس الشـرك الأكـبر الـذي حـذر منه لقمـان عليه السـلام ابنه، ولا ريب أنه أعظم شـيء، وهو المحبط للعمـل، أما ما

دونه من المعاصي وإن كان يحذر منها؛ لكنها شرك أصغر، فعلى هذا يكون الظلم في هذه الآية: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام:82] يمكن أن يفسر بأنه ثلاثة أنواع، كما تقدم في كلامه رحمه الله.

5 - أنواع الظلم

النوع الأول: الظلم الأكبر، وهو: الشرك بالله، وهو الذي لا أمن معه ولا هداية.

النوع الثاني: ظلم العبد للناس وللعباد، وهذا ظلم عظيم، وهو الذي يقول الله تبارك وتعالى عنه، في الحديث القدسي: {يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا } ويقول عنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {الظلم ظلمات يوم القيامة } فظلم الإنسان للإنسان مرتبته تقع بعد الظلم الأكبر.

النوع الثالث: أن يظلم العبد نفسه بالذنوب والمعاصي.

فإذاً: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام:82] فلم يشركوا بالله، ولم يظلموا عباد الله، ولم يظلموا أنفسهم بالمعاصي، هؤلاء لهم الأمن والاهتداء الكامل يوم القيامة.

وأما من شاب توحيده وإخلاصه وإيمانه بالشرك الأكبر، فليس له أمن ولا اهتداء، وأما من خلط إيمانه بظلم للعباد، أو بظلم لنفسه بالذنوب والمعاصي، فهذا حاله كما قد بينا في الظالم لنفسه.

قال المصنف: ' وقال ابن القيم رحمه الله قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82] وقال الصحابة: {وأينا يا رسول الله! لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: ذلك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان:13] }.

فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه -أيَّ ظلم كان- لم يكن آمنـاً ولا مهتدياً.

فأجابهم صـلوات الله وسـلامه عليـه: بـأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك.

وهـذا -واللـه- هو الجـواب الـذي يشـفي العليل ويـروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام هو الشرك، الذي هو وضع العبـادة في غـير موضـعها، والأمن والهـدى المطلـق: هما الأمن في الدنيا والآخرة، والهـدى إلى الصـراط المسـتقيم. فالظلم المطلق التـام، رافع للأمن وللهـدى المطلق التـام، ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى فتأمله، فالمطلق للمطلق، والحصَّة للحصة. انتهى ملخصاً '

وأقول: هذا مثل ما تقدم، فقوله: المطلق للمطلــق، أي الذي سلم مطلقاً من الشرك والذنوب، له الأمن المطلــق، والحصَّة بالحصَّة، أي بقدر ما يكون الظلم يكون النقص في الأمن والاهتداء.

6 - شرح حديث عبادة في فضل التوحيد

قــول المصــنف رحمه اللــه: ' وعن عبــادة بن الصــامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {من شــهد أن لا إله إلا الله وحــده لا شــريك وأن محمــداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورســوله، وكلمته ألقاها إلى مــريم وروح منــه، والجنة حق والنــار حــق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل } أخرجاه'.

عبــادة بن الصــامت بن قيس الأنصــاري الخــزرجي أبو الوليد أحد النقبـاء، بـدري مشـهور، مـات بالرملة سـنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سـنة، وقيـل: عـاش إلى خلافة

معاوية رضي الله عنه.

حكم النطق بكلمة التوحيد مجردة

'قولــه: من شــهد أن لا إله إلا اللــه، أي: من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضـاها باطنـاً وظـاهراً -فلا بد في الشـهادتين من العلم واليقين والعمل بمـدلولهما- كما قـال الله تعالى: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [محمد:19] وقولـه: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [الزخرف:86].

أما النطق بها من غـير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضــيه: من الــبراءة من الشــرك، وإخلاص القــول والعمل -قــول القلب واللســان، وعمل القلب والجــوارح- فغير نافع بالإجماع.

قال القرطـبي في المفهم على صـحيح مسـلم : بـاب لا يكفي مجــرد التلفظ بالشــهادتين، بل لا بد من اســتيقان القلب.

وهـذه الترجمة تنبيه على فسـاد مـذهب غلاة المرجئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان.

وأحـاديث هـذا البـاب تـدل على فسـاده، بل هو مـذهب معلـوم الفسـاد من الشـريعة لمن وقف عليهـا، ولأنه يلـزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمـان الصـحيح، وهو باطل قطعاً '.

أقول: كلام العلماء رحمهم الله كثير في هذا الموضــوع، كما سمعتم في كلام القرطبي وغيره أيضاً.

والمقصــود: أن حــديث عبــادة بن الصــامت الصــحابي البدري، أحد النقبـاء، الـذين كـانوا نقبـاء الأنصـار رضي الله عنهم، ويكفي أنه شهد بدراً فضلاً، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى

قد اطلع على أهل بدر فقـال اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرت لكم، فليس وراء هــذا الفضل من فضل إلا من كــان أفضل من أهل بدر ، كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وهم من ضمنهم، ولكنهم أفضل.

وفي هذا الحـديث يحـدث عبـادة بن الصـامت رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { من شـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك وأن محمداً عبده ورسوله } ومعنى ذلك أن الجزاء في النهاية إدخـال الله له الجنة على ما كان من العمل.

والباب: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، فكلمة التوحيد هي الــتي بها يكفر الله تعــالى الــذنوب، ويــدخل الإنســان الجنــة، على ما كــان من عمــل، فهــذه الكلمة أو الشــهادة بأنه سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى هو وحــده الإله المعبــود لا شريك له، والشهادة لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أنه عبد الله ورسوله، هذه هي كلمة التوحيـد، والـذي يحقق التوحيد هو الذي يحقق هذه الكلمة.

معنى وحقيقة كلمة التوحيد

كل إنسان يقول كلمة التوحيد أو يدَّعيها من المســلمين، فهل المقصود بقوله: (من شــهد أن لا إله إلا اللــه) أي: من قالها ونطق باللسان قـائلاً: لا إله إلا الله محمد رسـول الله أنه يدخله الله الجنة على ما كــان من عمــل، أي: على أي عمل كان؟

هذا -طبعاً- غير معقول عند المؤمن الذي يعقل عن الله تعالى ورسوله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وقد قـال المؤلـف: في قوله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: {من شـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورســوله } ليس المراد بها مجرد النطق، ولكن لا بد فيها من العلم واليقين، واستدل بقول الله تبارك وتعـالى: فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ [محمد:19]، فلا يكفي النطق، ولا يكفي أن يقــول الإنســان أنا أشــهد أن لا إله إلا اللــه،بل يجب عليه العلم أنه لا إله إلا اللـه، كما في الآيـة: إِلَّا مَنْ شَـهِدَ بِـالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [الزخرف:86] أي: وهم يعلمون شهادة الحق.

معنى كلمة: أشهد

والشـهادة أمرها عظيم، فكلمة الشـهادة أو أشـهد ليس معناها أنا أقــول، أو أقــرر، أو أظن، أو ربمــا!! ولننظر إلى الشـهادة في أمـور الـدنيا، فـأنت إذا ذهبت إلى المحكمـة، وقلت للقاضي: يمكن وأتوقع أنه كذا فهل سيقبل شهادتك؟ لا. بل لا يسميها شهادة أصلاً.

فما معنى الشهادة؟

ورد في الحديث وإن كـان فيه ضـعف قـال: {على مثلها فاشهد } أي: على مثل الشمس.

فالشهادة تحتاج أن تكون جازماً ومسـتيقناً وعالمـاً بهـا، فعندما يقـول العبد المـؤمن: أشـهد أن لا إله إلا اللـه، هـذه الكلمة العظيمـة، الـتي تعـدل وتـرجح بالسـماوات والأرض ومن فيهن غير اللــه، يجب أن يقولها عن علم ويقين وليس مجرد النطق أو التلفظ باللسان.

وهذا الذي وقع فيه -مع الأسف- أكثر الناس، حيث ظنـوا أن معنى أننا أمة التوحيد، وأننا أمة محمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ، أننا نشــهد أن لا إله إلا اللــه، وأننا نقولها باللســان فقط.

فإذا سمع الواحد منهم من يحذر من الشرك، وينهى عن الشرك، فإنه يقول: هذه أعمال المشركين والكفار واليهود، وهذا يقول لا إله إلا الله! فنقول: هل كل من قــال لا إله إلا الله يسلم من الشرك؟

وهل كل من قــال لا إله إلا الله يصــبح له الأمن التــام والاهتداء التام؟

قول لا إله إلا الله له حالات:
أحوال الناطق بكلمة التوحيد

الحالة الأولى: إن كــان في المعركــة: كما في حــديث أسامة رضي الله عنـه، إن كنا في المعركـة، نجاهد الكفـار، ونقاتلهم ونحـاربهم، فقـال الرجل من الكفـار: لا إله إلا الله فهل نقبل منه ونكف عنه؟

فــــــــــــــأسامة بن زيد رضي الله عنه قتل رجلاً من المشـركين في الحـرب، بعد أن قـال: لا إله إلا اللـه، فقـال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد استعظم ذلك، واستفضعه: {أقتلته بعد أن قال لا إله إلا اللـه؟! فقـال: يا رسـول اللـه، إنما قالها يتعــوذ بها من الســيف } أي: لما رأى الســيف يهوي عليه أراد أن يتعـوذ بها عن السـيف فقالهـا، فلم يكن قصده الإسلام، قال: {أشققت عن قلبه } فــانظروا كيف كان رسول الله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ نـبي الرحمة ونـبي الهدى يعلمنا أن لنا الظاهر في هذه الحالة، فإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله فعلينا أن نكف، ونرفع عنه السيف.

الحالة الثانية: في حالة الاستقرار: من نطقها فإننا نتركه يعمل، لكن هل نتركه يعمل ما يشاء، ونقـول: قد قـال ذلك اليوم لا إله إلا الله؟

هذا الذي يظنه كثير من الناس اليوم، فيقول أحـدهم: أنا ولـدت من أب مسـلم وأم مسـلمة، والحمد للـه، والمجتمع مســلم، وكلنا نقــول: لا إله إلا اللــه، إذاً لا إله إلا الله تكفي وحدها!

فنقــول لهــؤلاء: الــدخول في الإســلام وإثباته وأحكــام

الإسلام شيء، وتحقيقه شـيء آخـر، يقـول الرسـول صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {أمرت أن أقاتل الناس حـتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول اللـه، ويقيمـوا الصـلاة، ويؤتـوا الزكـاة، فـإذا فعلـوا ذلك عصـموا مـني دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحق الإسـلام، وحسـابهم على الله تعـالى } وقد يكونون منافقين غير صادقين، لكن نحن لنا الظاهر.

وفي الحـديث الآخـر: {من اسـتقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا } أي: في الأحكام.

فيجب أن نفطن وأن نفقه هـذه الحقيقـة، فبالنسـبة للأحكام نجـري أحكـام الإسـلام على كل من أظهر الإسـلام وأظهر الشـهادتين، بـأن شـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول اللـه، وأدى الصـلاة وآتى الزكـاة فهـذا نجـري عليه أحكام الإسلام.

وبالمناسـبة قد يقـول بعض النـاس: في حـديث: {بـني الإسـلام على خمس } ذكر خمسـة، وهنا ذكر ثلاثـة: الشهادتين والصلاة والزكاة، فأين الركنان الآخران؟

فيقال: يمكن أن يكون في نهـار رمضـان مفطـراً لعـذر، وقد يكـون مفطـراً ولا يـدرى عنـه، وأما الحج فلأنه مـرة واحـدة في العمـر، فيمكن ألا يحج هـذه السـنة، ويريد الحج في التي تليها، ولذلك بـنيت الأحكـام الظـاهرة على الأمـور الواضـحة الظـاهرة، مثل الصـلاة، فهي شـعيرة واضـحة وظاهرة لا بد أن تؤدى، والزكاة لأنها كل عام تؤخذ ويأخذها الإمام أو نائبه، فهذه تؤدى، فمن جحدها ولم يـأتِ بها -وهي حق الإسلام- يعاقب بالعقوبات الشرعية المعروفة.

فالمقصـود أن من أقـام الصـلاة، وآتى الزكـاة بعد الشـهادتين، فهـذا مسـلم، نقر له بالإسـلام، أي: له علينا الحقوق الشرعية.

مثلاً: إذا مــات علينا أن نغســله ونكفِّنــه، ونصــلي عليه وندفنه في مقـابر المسـلمين، فهـذا حق له نعامله بـه، وإذا جـاء إلى بيت المـال -الـذي جعله الله سـبحانه للمسـلمين عامة- فنعطيه منه، وهذا حق من حقوقه.

إذاً له ما لنا وعليه ما علينا، لا نغشه ولا نظلمه فإذا قال أحد: هذا منافق وكذاب، وقد يكـون عرفه في لحن القـول، لكن ما لم يظهر ما يناقض هذا الأمر بأمر شـرعي يسـتحق عليه العقوبة فنظل نحن نعامله ظـــاهراً على أنه مســـلم، فإذا تزوج وعقد كان زواجه صحيحاً، وإذا بـاع فبيعه صـحيح، ولا يمنع من دخول الحرمين، وأحكام المسلمين كلها تجـري عليه.

لكن المشكلة، أنَّا نخلط بين إجراء الأحكــام وبين حقيقة الإيمان، فنجري له أحكـام الإسـلام نعم، لكن هل هو محقق للإيمان، كلنا ينظر إلى نفسه أولاً ثم إلى غيره.

حقيقة الإيمان

فـإن تحقيق الإيمـان يكـون بأربعة أشـياء: بقـول القلب، وقــول اللســان، وعمل القلب، وعمل الجــوارح، ولا تكــون شـهادة أن لا إله إلا الله إلا بــذلك، بــأن يشــهد أن لا إله إلا الله، ويقولها بلسانه ويقولها بقلبه، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {من قال لا إله إلا الله يصدق قلبه لسـانه، ولسـانه قلبه }.

فهــذه هي حقيقة الإيمــان الــذي ينجو صــاحبه عند الله فعلاً، أما الذي ينجو من سيف المؤمـنين في الـدنيا -فقـط- ونجري عليه أحكام المسـلمين في الـدنيا، لكنه لا ينجو عند الله فهو الذي يتلبس بالشرك، وهـذا ليس فيه فائـدة، وإنما نحن نتكلم في النجاة عند الله ظاهراً وباطناً.

ويجب أن نعلم أن من لا يشـهد أن لا إله إلا الله بلسـانه

فليس بمسلم، فمن لم يقر بلسانه بشـهادة أن لا إله إلا اله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بمسلم، لا في الدنيا ولا في الآخـرة، وهو كـافر وهـذا معلـوم، ولكن ننبه عليه لوجـــود من شـــك فيه وذكر فرقـــاً بينهما من الفرق.

وكـــذلك يجب أن نعلم أنه لا بد من اعتقـــاد القلب: فقد كـان المنـافقون يقولـون -إذا جـاءوا إلى رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نشهد إنك لرسول الله، وهم أمـام رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنطق باللسان موجــود، ولكن في الواقع شهد الله تبارك وتعـالى عليهم أنهم كـاذبون في شـــهادتهم، فهـــؤلاء لا تنفعهم الشـــهادة باللســـان لأنهم لم يشهدوا بقلوبهم، فلا بد من شهادة القلب، بأن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وتصـديق القلب بذلك.

إذاً الإيمان عندنا يتركب من أربعة أشياء: القــول وعرفنا أنه قول باللسان، وقول بالقلب، ومعناه: الإقــرار والإذعــان والاعتقــاد في القلب بــأن الله تعــالى واحــد، وأنه المعبــود المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والاعتقاد بـالقلب بـأن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ هو عبد الله ورسـوله، وهـذا هو الاعتقاد.

ثم العمـــل: عمل القلب وعمل الجـــوارح، فما هو عمل القلب؟

قول القلب هـو: الإقـرار والاعتقـاد، أما عمل القلب فهو اليقين، والإخلاص، والتوكــل، والرغبــة، والرهبــة، والرجــاء، والخوف، والإنابة، والصـبر، والإخبـات، والانقيـاد، والإسـلام، والإذعان، والتسليم، والرضا بحكم الله وبقدر الله، إذن هذه هي أعمـــال القلب، وأعمـــال، القلب أعظم الأعمـــال وكل العبادات تتفرع منها.

فلا بد من الإيمـان القلـبي الـذي هو قـول القلب وعمل القلب.

ثم إن شـهادة أن لا إله إلا اللـه، هـذه الكلمة العظيمـة, التي نشترط أن تقال باللسـان، وأن تقـال بـالقلب, بمعـنى الإقــرار والاعتقــاد والتصــديق، بالإضــافة إلى عمل القلب والجوارح بمقتضاها، وبهذا يسـتكمل الإيمـان، عنـدما نقـول ذلك فإننا نريد أن نـبين كيف نسـتكمل الإيمـان، وأن نـبين للناس معنى الإيمان في منهج أهل السنة والجماعة .

7 - أركان الإيمان في منهج أهل السنة والجماعة

ونستعرض هنا بعض الأدلة, التي تبين لنا أن من لم يكن كذلك فإنه ليس مسلماً ولا مؤمناً.
الركن الأول: قول القلب

أولاً: الــذين يقولــون لا إله إلا الله بألســنتهم، ولكن لا يقولـون ذلك بقلـوبهم, ولم يقـروا بقلـوبهم - أي: يقولـون بأفواههم ما ليس في قلوبهم - فهؤلاء ليسوا مســلمين, ولا يوجد أحد يقول: هؤلاء مسلمون، لأنه يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وإن شهد أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله، وإن أعطيناه أحكـام الإسـلام الظـاهرة -كما تقـدم- لكن هو عند الله تبارك وتعالى ليس مسلماً لأن قلبه لم يذعن, ولم يقر, ولم يشهد بقلبه بأنه لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والفرقة والطائفة الــتي ذكرها الله تعــالى في القــرآن كثيراً, والتي تقول بلسانها لا إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تقر بقلبها هم: المنافقون.

والمنافقون ليسـوا مسـلمين, ولا يعـدون من المؤمـنين, ولذلك يدعوهم الله سبحانه إلى الإيمان وإلى الإخلاص، كما في سورة التوبة وسورة المنافقين وسورة النساء وغيرهـا؛

لأنهم إن قـالوا لا إله إلا الله بألسـنتهم لا يقولونها بقلـوبهم، ولا يعتقدونها ولم يخلصوا فيها، فليسوا صادقين في قولهـا، ولهذا يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبة:119].

وهذه الآية قد قالها بعد التعقيب على أحداث غزوة تبوك , حيث نـزلت سـورة التوبـة, وفضح الله تعـالى المنـافقين فيها، وختمها بهـذه الآية العظيمـة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّـادِقِينَ [التوبـة:119] فلا بد من الصـدق في قولها، وأما الكـذب فمهما قـالوا كلمة التوحيد وشـهدوا بها, فالله يعلم إنهم لكـاذبون, وهـؤلاء شـهادتهم باطلـة, ولا تنفعهم عند الله.

الركن الثاني: قول اللسان

إذا جاءنا أنـــاس ُمقـــرُّون بقلـــوبهم, أي: في قلـــوبهم يصدقون ويقرون بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ لكن لم يقولوها بألسـنتهم, ولم يظهروهـا, ولم يـذعنوا بها بألسـنتهم, فهـؤلاء كفـار، ويمكن بعض النـاس يقـول: هـذا عرف بقلبه وأقر بقلبه.

فنقول له: لا بد من القول باللسـان, والإقـرار بـذلك, ولا يكفي مجـرد معرفة الحق أو التصـديق به بـالقلب، دون أن يقول الإنسان ذلك، ومن عـرف وصـدق وأيقن حقـاً بـأن لا إله إلا الله فلا بد أن يقولها، وهـذا نماذجه كثـيرة، فهو ليس مجرد كلام أو تمثيل لاستكمال القسـمة الرباعيـة، بل كثـير جـــداً في القـــديم والحـــديث, فيوجد من يعلم ويشـــهد أن محمـداً رسـول الله صَـلّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ, ويشـهد أن القرآن حق بقلبـه، لكنه لا يـذعن لـذلك ولا يظهـره، فهـؤلاء ليسوا مسلمين؛ بل هم من الكافرين, ولا ينجون من النــار، ولا يعتبرون مسلمين أبداً.

مثـال ذلـك: المستشـرقون، أو الكُتَّاب الأوروبيـون من اليهود والنصارى وغـيرهم الـذين يثنـون في كتابـاتهم -الآن-

على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه حق، وأن ما جاء به حق، وأن القرآن عظيم، ويقولون: هذا مصلح ومجدد عظيم إلى آخره، فهذا لا يأخذ أي حكم من أحكام الإسلام، وإن أقرّ بوجود الله، لأن وجود الله قضية غير مختلف فيها في الأمم الماضية.

فوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر مفروغ منه، دلت عليه الفطرة والعقل والشواهد في الأنفس وفي الآفاق، قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقال تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان:25] حتى المنافقون والمشركون وكفار قريش الذين أنكروا رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛كانوا يقرون بأن خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر والرازق هو الله إلى آخر ما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه، لكن لم ينفعهم ذلك أبداً.

فكون هؤلاء الناس يقولون إن الإسلام حق, دون أن يقروا وينطقوا بالشهادتين؛ لا يدخلهم في الإسلام.

وأيضاً من عرف الحق بقلبه، وأنكر بلسانه, وهؤلاء ذكر الله تبارك وتعالى لهم مثلاً في القرآن, وبين لنا أنواعاً منهم في القرآن، فكتاب الله هو كتاب الهداية, وكتاب التوحيد الخالص, وقد ذكر الله منهم فرعون وقومه، فقال الله تعالى فيهم: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً [النمل:14] فأنكروا آيات الله, لكن في قرارة أنفسهم يعلمون أنها الحق، ولهذا قال موسى عليه السلام لفرعون: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ [الإسراء:102] ففرعون في قرارة نفسه يعلم الحق, ولهذا لما اشتد الجدل بينه وبين موسى عليه السلام، وأراد أن يعمي القضية قال: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ

ابْنِ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَبْلُـغُ الْأَسْـبَابَ * أَسْـبَابَ السَّـمَاوَاتِ فَـأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبـاً [غـافر:36-37] وهذا من باب تضييع القضية, وإشغال الناس وإلهائهم عنها.

وإلا فالحقيقة أن هنـاك إقـراراً بوجـود اللـه, وبصـدق رسـالة موسى عليه السـلام, وإن قـال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [النازعات:24] فمهما جحد فهو مستيقن في نفسه بأن هذا حـق، ولكنه العنـاد, والكـبر والطغيـان نسـأل الله العفو والعافية.

فمن عرف هذه المعرفة القلبية -أن الدين حق- ثم كابر وعاند رسـول رب العـالمين, لم تنفعه تلك المعرفـة, لأنه جحد بها.

وذلك -أيضـاً- ككفـار قـريش، حيث كـانوا يعلمـون في أنفسهم أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ هو الحـق، حـتى أبو جهل عـدو الله لم يكن عنـده ذرة من الشـك، في أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ على الحـق، لكن يقـول: كنا وبنو هاشم كفرسي رهـان -يعـني نتسـابق سـباق عنصـرية جاهلية قبليـة- سـقوا وسـقينا, ورفـدوا ورفـدنا, وأطعمـوا وأطعمنا، وفي المعارك وفي كل شيء نسابقهم، وننافسهم فلما قالوا منا نبي، فمن أين لنا بنبي؟

إذاً أحسن شيء نكفر به، والعياذ باللـه. فلنعتـبر ولننظر كيف يودي العناد والكبر بصاحبه.

ومثل هذا العناد العنصري الجاهلي عنـاد اليهـود لرسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أيضـاً, فـاليهود ذكر الله عنهم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فهم يعرفون صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التوراة، وهـذا هو سـبب مجـيئهم إلى المدينة وخيبر .

حيث قـرأ اليهـود في التـوراة وفي أخبـار رسـلهم، أنه

سيخرج في آخر الزمان نبي, وسيكون مهاجره -أي موضع هجرته- أرضاً ذات نخل بين حرتين، فبعضهم عندما وصل إلى خيبر , ورأى النخل, ورأى الأرض كأنها حرة، بقي فيها، وبعضهم لما تقدم إلى المدينة ورأى الأرض والنخل بين حرتين بقوا فيها، وأخذوا ينتظرون مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقصصهم في هذا عجيبة وكثيرة، وكما في حديث زيد بن سعنة عندما سُئل حبر يهودي عن موعد خروج نبي آخر الزمان، فنظر فإذا أحد الصحابة من الأنصار غلام صغير، قال: [[إن يعش هذا الغلام يدركه]] حتى أنهم كانوا يعرفون أنه سوف يأتي في وقت قريب.

ولما قدم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة, خرج أحدهم في المدينة ، ويقول: 'يا بني قيلة! هذا صاحبكم' عرفه ولم تره العيون بعد.

وهكذا يظهر جلياً أنهم كانوا يقرون ويعلمون صدق نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا الإقرار لم ينفعهم، وقد جاء منهم اثنان إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وشهدا بالرسالة وهم عنده. ومع ذلك لم يُعد ذلك منهم إيماناً, أو إسلاماً, كما في الحديث الذي رواه أحمد وهو حديث صحيح: {أن حبرين من أحبار اليهود, قال أحدهما للآخر: تعال نذهب إلى هذا النبي ونسأله } وهذا الكلام لم يسمعه منهم أحد، وإنما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما بعد ما دار بينهما، فرواه الصحابي رضي الله عنه: { فقال له صاحبه: لا تقل إنه نبي } وهو يقصد تذكيره بأنهم متفقون على جحد نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته، وإن كانوا يعلمون أنه نبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: { فإنه إن بلغه ذلك يكن له أربعة أعين } أي: يأخذه الكبر, ويفرح بشهادتنا له بالنبوة، فنحن لا نشهد له، وهذا حسدٌ من عند أنفسهم,كما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: { فذهبا إليه وقالا: يا محمد، أخبرنا عن التسع آيات التي أعطاها الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى وهارون, فقرأ عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً [الأنعام:151] } إلى آخر آيات الوصايا العشر في آخر سورة الأنعام, والتي أنزلها الله تبارك وتعالى على كل نبي، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهذا من حكمة الدعوة- عدل عن الجواب، ولم يخبرهم بالآيات -التي هي: الجراد, والقمل, والدم, والضفادع- بل عدل عن ذلك إلى ما هو أهم وأحوج, وإلى ما يجب أن يعلموه.

وقد أنزل الله على موسى وكل رسول هذه الوصايا العشر, التي افتتحت بتوحيد الله: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً [الأنعام:151] أن يوحد الله, ويُعبد وحده لا شريك له، واختتمت بالتحذير من البدعة ومن الابتداع والإحداث في الدين.

وما أكثر ما ابتدع اليهود والنصارى, وهو واقع في هذه الأمة،وقد قال تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام:153] { فلما قرأ ذلك، قالا: نشهد أنك نبي، وأرادا أن ينصرفا } وهذا هو الشاهد، فهل نفعتهم هذه الشهادة؟

فهم عندهم يقين, وصدق وإقرار أنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لا يلزم من ذلك الإيمان والاتباع.

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { ما يمنعكما أن تتبعاني -أن تتبعا ما جئت به من الحق-؟ قالا: إن الله قد أخذ علينا العهد أن لا يزال من ذرية داود نبي } أي: أنت من ذرية إسماعيل، والله تعالى قد أخبرنا وأعطانا أنه لا يزال من ذرية داود نبي، فكونك من بني إسماعيل يجعلنا نكفر برسالتك، وإلا فأنت نبي، ولو كنت من آل داود لآمنا بك، سبحان الله!

فالقضية عندهم قضية نسب وعنصرية، وكما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه, وأنهم شعب الله المختار، أي: إن كان جاءنا الداعية من بني فلان قبلناه, وإن كان من بني فلان لم نقبله، نعوذ بالله! إن كانت الفتوى جاءت من المكان الفلاني قبلنا، وإن كانت من فلان فلا، فهذه عنصرية وجاهلية. فالحق يقبل والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، لكنه الحسد الذي أخذ بالقلوب, وقد كفروا بما أنزل الله تبارك وتعالى على داود وعيسى وموسى, وعلى من جاء من ذرية داود, والسبب هو الكبر والعناد والحسد.

إذاً لم ينفع اليهود وأهل الكتاب أنهم يعرفون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقول بعضهم لبعض انه نبي, لأن الواجب عليهم أن يتبعوه ويذعنوا له. وينقادوا لأمره ولدينه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه هي حقيقة كون الإنسان مسلماً أو مؤمناً.

وهناك مثال أوضح من هذا كله، وهو من يعلم أن الإسلام حق، ويقف ينصر الدين, ويدعو الناس إلى كف الأذى عن هذا الدين, ويحامي وينافح ويكافح دونه؛ ولكنه هو لم يشهد ولم يقل كلمة الحق ويذعن، فلم ينفعه ذلك, ولا يعد من المسلمين.

وهذا ما فعله عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو طالب ، فإنه أكبر من حمى دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصره وآزره حتى لما حُصر المؤمنون في الشعب حُصر معهم، فكان في كل أمر من الأمور يكون ظاهره مع المسلمين ومع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يعلم أنه على الحق، لأنه لا يوجد أحد يؤازر أحداً, ويتحمل الشدائد والتعب والبلوى والأذى ويظن أنه كاذب، وقد صرح بذلك:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية ديناً

لـولا الملامة أو حـذار مسـبة   لوجـدتني سـمحاً بـذاك مبينا

فكان يخاف أن يعيّر, ويقال: إنه ترك ملة عبد المطلب .

وهذه العادات -اتباع الآباء والأجداد- هي مشـكلة النـاس في كل زمــان ومكــان: إِنَّا وَجَــدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَــارِهِمْ مُقْتَــدُونَ [الزخــرف:23] فمهما قيل ومهما جــاء بالآيات, وحتى لو قال لهم الرسول: أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْـدَى مِمَّا وَجَــدْتُمْ عَلَيْــهِ آبَــاءَكُمْ [الزخــرف:24] قــالوا: لا. وكــذبوا وأعرضـوا, فـالحق عنـدهم هو ما عليه الآبـاء والأجـداد, وما كانوا عليه هم من العادات والتقاليد.

وهذه مشـكلة كثـير من الكفـار ومنهم أبو طـالب ، فمع نصرته وتأييده للدعوة, يأتيه النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ, وهو على وشك الموت ويقـول: {يا عم! كلمة أحـاج لك بها عند الله   } فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد منه -فقــط- أن يشهد أن لا إله إلا اللـه, وأن يقولها مع علمه أنها الحـق، ولكنه تــردد، وكــان عــدو الله الشــيطان أبو لهب يقــول: { أترغب عن ملة عبد المطلب؟!   }.

فكان هناك داعيان يتنافسان عنده: داعي الخير والهــدى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، يطلب منه كلمة ينجو بها من النــار، وهــذا بفضل التوحيد وما يكفر من الــذنوب، والآخر يقول تترك ملة عبد المطلب ، فكان آخر ما قال: {هو على ملة عبد المطلب   } نسأل الله العفو والعافية.

فحزن وأسف وتألم لذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ، فـأنزل الله تبـارك وتعـالى عليـه: إِنَّكَ لا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص:56] سبحان الله! فلم ينفع أبا طـالب أنه كـان عالمـاً بـالحق وعارفـاً به ومـدافعاً عنه, لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقر به بلسانه ويذعن له ويصبح

من أهله.

إذاً عرفنا -الآن- أهمية تصـــــــديق القلب للســـــــان, فالمنـافقون لم تصـدق قلـوبهم ما قـالوا بألسـنتهم؛ فكـانوا كافرين غير مسلمين، وعرفنا أيضـاً أهمية أن اللسـان يجب أن يصـدق القلب, فمن عـرف الحق بقلبه ولكن لم يصـدق ذلك بالإقرار باللسان فهذا أيضاً لا يعد من المسلمين.

الركن الثالث: عمل الجوارح

أما عمل الجــوارح فهــذا من تركه بالكلية -أي: إنســان ترك عمل الجوارح كله, فلا صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج، ولا أي عمل من أعمـال الجـوارح، لم يعمل بشـيء منهـا, ويقول أشهد أن لا إله اللـه- فهـذا لا من المسـلمين ولا يعد من المؤمنين؛ لأنا قد بينا أن تارك الصـلاة كـافر، فكيف من تـــرك كل أعمـــال الإيمـــان بـــالجوارح -نســـأل الله العفو والعافية-.

فهذا أيضاً وإن ادعى وإن قال وزعم بلسانه أنه مســلم, وإن كــان اســمه في الهوية مســلماً, وأمه فلانة مســلمة, وأبـوه فلان من أسـماء المسـلمين؛ فلا ينفعه ذلـك, ولا يعد مسلماً إلا بأن يؤدي الصلاة ويؤدي أعمال الجوارح الأخـرى, ولكن لو نقصت بعض أعمال الجـوارح، أو بعض الواجبـات -التي لا يكفر تاركها- فإنه لا يخرج صاحبها من الإيمان.

فشـهادة أن لا إله إلا اللـه، إقرارها باللسـان لا يتفـاوت النـاس فيـه، فيجب أن يقولها بلسـانه، وأيضـاً التصـديق بها بالقلب لا بد من حصوله، لكن الأعمال يتفاوت الناس فيهـا, ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: {الإيمـان بضع وسـتون -وفي رواية بضع وسبعون شعبة فأعلاها شـهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريــق، والحيــاء شــعبة من الإيمان } فهذه الشعب يتفاوت الناس فيها, فواحــدٌ يعمل ثلاثين شــعبة, وآخر أربعين, وبعضــهم يســتكمل الشــعب..

وهكذا.

فهـذه الأعمـال تتفـاوت؛ لكن من تـرك الشـعب كلهـا؛ فليس بمسلم.

فالناس يتفاوتون ويختلفون في الشـعب, فبعضـهم أكـثر من بعض.

وكـــذلك في أعمـــال القلب الباطنة وشـــعب الإيمـــان الباطنة، مثل ما ذكر النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ في هـذا الحديث الحياء، ومثل اليقين, فاليقين يتفـاوت النـاس فيـه، والإخلاص، والصدق، والإخبات، والإنابة, والرجـاء، والخـوف، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والصبر.

الركن الرابع عمل القلب

كل ما سـبق من أعمـال القلب الـتي لا يمكن أن يكـون الإنسـان حقـاً شـاهداً أن لا إله إلا الله إلا بها -بقـدر منهـا- فالإنسان الذي ليس عنده يقين -مثلاً- ويشك في شهادة أن لا إله إلا اللـه, وإن قالها بلسـانه, فهـذا لا يعد مسـلماً, لأنه يشك في ذلـك: أَفِي اللَّهِ شَـكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [إبـراهيم:10] فلا بد فيها من اليقين, ولهـذا شـرط النـبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {من قـال: لا إله إلا الله غـير شـاك فيها دخل الجنة } فهذا لم يأت بشـرط من شـروط لا إله إلا الله, وهو شرط اليقين، وهو لا بد منه.

والعلم لا بد منه: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ [محمـد:19] وكـذلك الإخلاص؛ لأن الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى يقول: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّينَ [البينـة: 5].

إذاً من لم يخلص دينه لله, ومن أشرك مع الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـــالَى، في محبته أو عبادته أو خوفه أو رجائه أو في أي نوع من أنواع العبادة فإنه لا يكون مسلماً.

ولا بد أيضـــاً من الإخلاص لله في قولهـــا، ولا بد من

التوكل والاســتعانة بالله تبــارك وتعــالى، لأننا نقــول في صلاتنا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5] فالله سـبحانه هو المطلوب المعبود المرجو وحـده, الـذي يـرجى ويخـاف ويتوجه إليه بالعبادة، ومع ذلك هو أيضـاً المسـتعان، فهو إن لم يعنا ويوفقنا للحق في هـذه العبـادة, وللهـدى وللسـنة، فربما عبـدناه على ضـلالة فلم ينفعنا ذلـك، وإن وفقنا إلى هذه العبـادة والطـاعة والخير, فالفضل له سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى؛ لأنه هو الذي هدانا, ولهذا يقول أهل الجنة: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [الأعـراف:43] وقال المهاجرون والأنصار:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فمهما أطعنــاه واجتهــدنا في طاعتــه, فالفضل له أولاً وآخـراً سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فلا بد من التوكل عليـه: قُـلْ هُـوَ الـرَّحْمَنُ آمَنَّا بِـهِ وَعَلَيْـهِ تَوَكَّلْنَا [الملـك:29] فمع الإيمــان الاستعانة والتوكل، ومع ذلك الصبر, وهذا من أعظم أعمـال القلوب, التي يحقق الإنسـان بها إيمانـه, وشـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

8 - أهمية الصبر في الإيمان وذكر أنواع الصبر

حيث أنه لا يمكن للإنســان أن يكــون مؤمنــاً حقــاً إلا بالصبر, وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الصـبر في كتابه في تسـعين موضـعاً أو أكـثر, كما قـال الإمام أحمد رحمه الله تعالى، والصبر ثلاثة أنواع:

1-الصبر على الطاعة.
2- الصبر عن المعصية.
3- الصبر على الأقدار.

الصبر على الطاعة

فالصـبر على الطاعة -مثلاً- كاسـتيقاظ الإنسـان مبكـراً, وهو ربما يكون سـهراناً أو متعبـاً, أو الجو بـارد, أو أي عـذر من الأعــذار؛ لكن إذا حــان وقت صــلاة الفجر فإنه يقــوم ويصــــبر على الطاعــــة, ويمشي إلى بيت الله ســــبحانه, ويسـتجيب إلى المنــادي إذا نــادى: حي على الصــلاة, حي على الفلاح, فهذا صبر على الطاعة.

ويصـبر على الصيــام وإن كـان هنـاك تعب أو حـرارة أو عطش أو مشقة؛ مما لم يرخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه.

وفي الزكاة والصدقات والنفقات الواجبة, يصبر على أن يؤديها, وإن كان الإنسان لحب الخير لشــديد؛ ولكن لا بد أن يصــبر على ذلك لأنه في ذات اللـــه، ويصــبر على الحج... وهكذا.

فهذا هو الصبر على الطاعة.

الصبر عن المعصية

والنوع الآخر: الصـبر عن المعصـية، فـالنفس تتطلع إلى النظر المحرم والفاحشة -نعوذ بالله- وأكل الربا، وإلى أكل أمــوال اليتــامى، والأخذ من حقــوق النــاس، وتشــتهي أن تتحدث وتتكلم في أعراض الناس, فإذا بدأ الحـديث والكلام عن أعـراض النـاس، فإنها ينبسط وترتـاح, وتوجد الرغبـات والشــــهوات؛ ولكن حفت الجنة بالمكـــاره، وحفت النــــار بالشهوات، فالإنسـان يجب أن يصـبر عن المعاصـي، ويكف نفسه عنها.

الصبر على الأقدار

والثالث: الصبر على الأقـدار، وضـرب النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ بـذلك مثلاً لابن آدم فقـال: { هـذا الأمل } والأمل نافذ وبعيد, والإنسان الذي عمره خمسـين أو سـتين سـنة, يؤمل إلى ما بعد المائة أو المـائتين أو أكـثر، وصـدق

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {يشـيب ابن آدم ويشب معه اثنـان الحـرص وطـول الأمل } فكلما ازداد عمـره، ازداد الحـرص وطـول الأمل عنـده، فسـبحان اللـه! دائمـاً الكبار أحرص من الصغار على الدنيا وعلى عدم إضـاعة أي شـيء, وعلى عـدم التفريط في أي شـيء, وهـذا كلام حق من كلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيؤمل الإنسان الأمل البعيد، والأجل يقطعه.

وهناك قصة واقعية مشهورة، تقول: إن أحد التجار تعاقد مع شـركة على مصـنع, وهو كبـير في السن -عمـره فـوق الستين سنة- وقـال لهم: كم يمكن أن يسـتمر المصـنع في الإنتاج ولا يتعطل بالكلية؟

قالوا: يمكن أن يستمر مائتي سنة.

والشركة أصـحابها كفـار، فقـدروا أن المصـنع سيسـتمر مائتي سنة ولا يتعطل.

قال التاجر: وبعدها أأقفله؟!

فهذا التاجر عمره قرب الستين, ولكن الإنسـان ينسـى، ويظن أنه باقي, وأن عمره ممـدود لكن الأجل يقطعـه، كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم السـهام قبل الأجـل, فهنـاك العـوارض: مصـيبة أو مشكلة أو مرض أو خسارة لا يخلو منها أي إنسـان.. فهـذه هي حقيقة الحياة, ولهذا لا بد في هذه الحياة من الصبر.

وهذا الصبر واليقين أثـنى الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى على من جاء بهما ورفعه: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السـجدة:24] فالـذين يجمع الله لهم بمنـه, وفضـله, وتوفيقه بين الصـبر واليقين؛ يكونـون أئمة هداة يهدون بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, ويقتدى بهم، وهذه لا

تجتمع إلا لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهكذا بقية أعمال القلوب.

ونكون بهـذا -إن شـاء اللـه- قد أتينا على قـول اللسـان, وقول القلب -أي إقراره وتصديقه- وعمل الجوارح وأعمـال القلب, على إيجـاز في ذلـك, وننتقل إلى معـنى شـهادة أن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

9 - معنى شهادة أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله

قال الشارح: ' وقوله: { وأن محمداً عبـده ورسـوله } أي: وشهد بذلك, وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل.

ومعـنى العبد هنـا: المملـوك العابـد، أي: أنه مملـوك لله تبـارك وتعـالى، والعبودية الخاصة وصـفه كما قـال تعـالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [الزمـر:36] فـأعلى مـراتب العبـد العبودية الخاصة والرسالة.

فـالنبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أكمل الخلق في هـاتين الصـفتين الشـريفتين، وأما الربوبية والإلهيـة: فهما حق الله تعـالى، لا يشـاركه في شـيء منهما ملك مقـرب, ولا نـبي مرسل '.

أهم وصفين للرسول صلى الله عليه وسلم

أقول: قوله: { وأن محمـداً عبـده ورسـوله } في هـذا الحديث جمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بين وصـفين هما أشرف وأعظم الأوصاف، وهما العبودية والرسالة.

فما المقصود بالعبودية وعباد الله كثير؟

كلنا عباد الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فأنا عبد اللـه, وهـذا عبد

الله ونوح عبد الله وإبراهيم عبد الله، فلماذا نقول ونشــهد: أن محمداً عبده ورسـوله؟ ألسـنا كلنا عبـاد اللـه، بل جميع الناس حتى الكفار عبـاد اللـه، لكنهم عبـاده بـالقهر وإن لم يعبدوه بالرضا والاختيار، فليس هو المتفرد وحــده بالعبودية لله؟!

والجــواب: أنه صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ قد اســتكمل العبودية.

أي: العبد الكامل في العبوديـــة, الـــذي لم يبلغ أحد من الناس درجته ومنزلته في كمال العبوديـة، ولهـذا في أعظم تكـريم وأعظم موقف من مواقف التكـريم, الـتي لم يعطها بشرٌ على الإطلاق, ولم تقع لأحـد, وهي الإسـراء والمعـراج لرسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، يصـفه الله تبـارك وتعالى بقوله: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْـدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَـهُ [الإسـراء: 1] فاختياره سبحانه لهـذه الكلمة في هـذا المقـام العظيم, يدل على أن لها معنى, وهو العبودية الكاملة.

أي: العبد الذي استخلصه واصطفاه واختاره، وخيرته من خلقه أجمعين، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الـذي سـتكمل مراتب العبودية.

وكـذلك في يـوم القيامـة: عبد واحد فقط من عبـاد الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى حينما يحشر الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى الأولين والآخــرين, ويجمعهم على صـعيد واحــد, وتكــون الشــمس منهم على قدر ميل, ويشتد الكـرب, ويعظم البلاء والهـول, ويريد الناس من يشـفع إلى الله تبـارك وتعـالى ليفض هـذا الموقف, وليفصل بين الناس في هذا الموقف، حين يغضب الجبار تبارك وتعالى غضباً لم يغضب قبله مثلــه, ولا يغضب بعده مثله، فيكون هـذا العبد هو صـاحب الوسـيلة, والدرجة الرفيعـة، وهـذا العبد هو الـذي يسـجد لله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى فيقال له: {ارفع رأسك, وسل تعط, واشفع تشفع } وهذا

هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عبـده الـذي حقق العبودية الكاملة لله تبارك وتعالى جهاداً في سبيل الله, ودعـوة إلى الله, وصبراً على الأذى الذي لقيه من أجل الدعوة إلى الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى, وعبـادة لربـه, فقـام الليل حـتى تفطـرت قدماه، أعرف النـاس بالله تبـارك وتعـالى, وأخشـاهم للـه, وأطوعهم لله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا عبد الله.

أمــا: ورســوله، فالرسل كثــير، أليس نــوح وإبــراهيم وموسى رسل الله عليهم السلام؟ بلى. ولكن رسوله الـذي هو أعظم وأفضل رسل الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى: تِلْـكَ الرُّسُـلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ [البقرة:253] والله فضّـل النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ على الرسل بفضـائل كثـيرة, ومن أوضحها وأجلاها: أنه خـاتم النبـيين والمرسـلين صـلوات الله وسلامه عليـه, وأن رسـالته عامة للثقلين: وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء:107] وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِـيراً وَنَـذِيراً [سـبأ:28] أما من قبله فكـان النـبي منهم يبعث إلى قومه خاصة.

فعندما نقول محمد عبد الله ورسوله, نكون قد مـدحناه, وأثنينا عليه صـــلوات الله وســـلامه عليـــه, بأفضل وأعظم وصفين له.

فهو العبد الكامل العبودية الذي بلغ الكمال والغاية فيها، وهو كــــــذلك أكمل الرسل في الرســـــالة حيث بعثه الله ســبحانه للنــاس كافــة، وجعل شــريعته ناســخة لما قبله ومهيمنة عليه، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعيسى عليه السـلام وهو رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ, ومن أولي العـزم, إذا نـزل في آخر الزمـان فإنه لا يحكم إلا بشريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذاً هذه هي مـيزة رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ

على العبيد كافـــــــة, وعلى الرسل كافة أنه بلغ الغاية في هاتين الصفتين، فهو خير عباد اللـه، وخـير رسل اللـه, وهو المستحق لأن يقال: عبد الله ورسوله، وخير ما يمدح ويثنى عليه صلوات الله وسلامه عليه أن يقال: عبد الله ورسوله.

وهـذا الـذي جهله كثـير من النـاس, فجهلـوا حقيقة هـذا الكمـال, وكما سـيذكر الشـيخ الشـارح، في بيـان أن هـذين الوصــفين لهما هــدف, وغايــة, وحكمة أن يكــون الوصف بالعبودية وبالرسالة.

اتبــاع الرســول صــلى الله عليه وســلم بين الإفــراط والتفريط

قال الشارح: ' { وقوله: عبده ورسـوله } أتى بهـاتين الصفتين, وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط.

فإن كثيراً ممن يدعي أنه من أمتـه: أفـرط بـالغلو قـولاً وفعلاً، وفــرّط بــترك متابعتــه، وأعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به, وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه, بصرفها عن مــدلولها، والصــدوف عن الانقيــاد لها مع اطِّراحهــا، فــإن شهادة أن محمداً رسول الله: تقتضي الإيمان به, وتصـديقه فيما أخبر, وطاعته فيما أمر, والانتهاء عمّا عنه نهى وزجــر، وأن يعظم أمـره ونهيـه، ولا يُقـدَّم عليه قـول أحد كائنـاً من كــــان، والواقع اليـــــوم وقبله ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين خلاف ذلك! فالله المستعان '.

أقول: الشيخ رحمه الله يقول: إن قوله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: { عبد الله ورسـوله } فيها دفع لجـانبي الإفـراط والتفريــــط, وعــــادة النــــاس -إلا من رحم الله وثبته على الصراط المستقيم- إما أن يفرط وإما أن يفرّط، وليس هذا خاصاً بنظرة الناس إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، أو حكمهم عليه, بل حتى في أحكام النـاس اليومية تقريبـاً، فالواحد منا يمــدح فلانــاً، أو يمــدح الشــيء حــتى يغلو فيه بالمرة، وإما يقول: ليس فيه خير، ولا يساوي شيئاً.

فالعـــدل قليـــل, وأقل شـــيء في النـــاس هو القصد والتوسط والعدل، لكن هـذه هي حقيقة الـدين بالنسـبة لما يتعلق برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالألوهية لله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والربوبية لله وحده، ولها أوصافها ولها خصائصها، وأما هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو عبد الله ورسوله.

الغلو في صفاته صلى الله عليه وسلم

فقوله: { عبـده } يـدفع بـذلك جـانب الـذين يغلـون في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ويجعلونه إلهـاً من دون الله.

سـبحان اللــه!! رســول التوحيد وداعية التوحيد وعــدو الشرك الأكبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، الـذي جاهد المشـركين بلسـانه وبيـده وبسـيفه، والـذي كل دعوته في توحيد اللــه, وكل ما جــاء به من شـــرع مرتبط بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، يـأتي بعض من يـدعي أنه من أمتـه, فيغلو فيه, ويجعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منزلة الألوهية!

وهذا كثير كما ذكر الشيخ، فلم يجعله عبداً لله, بل جعله نداً وإلهاً مع الله، تعالى الله عما يصفون. ثم يقولون: نحن نحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن حبهم هذا يكون بجعله شريكاً لله عز وجل.

فمنهم من يقـول: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعـــلم الغيب كلــــــه, أي: مطلع على الغيب -تعـــــــالى الله عما يشركون- وهذا باطل بنص كتاب الله: وَعِنْـدَهُ مَفَـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُـوَ [الأنعـام:59] سـبحان اللـه! عنـده مفـاتح الغيب ولا يعلمها إلا هو، ويقول عن نبيه: وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُــولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَــكٌ [الأنعــام:50] وَلَــوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ [الأعراف:188].

فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب, وقد ضلت ناقته, فقال المنافقون المستهزئون الساخرون: هذا محمد، يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ضاعت ناقته وما وجدها، فلما أوحى الله إليه من السماء، قال: {إن أناساً قالوا كذا وكذا، وقد أخبرني الله تعالى بموضعها، وإني لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه } إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ [الجن:27].

فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقال فيه: إنه يعلم الغيب, فهو لا يعلمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولا يعلم الغيب أحد إلا الله, ولكن الله تعالى يظهر ويطلع بعض خلقه على شيء من أمور الغيب, لحكمة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وآيات لرسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن الناس من يجعلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شريكاً ونداً لله في الدعاء والعبادة، فيقولون: يا محمد! يا رسول الله! يا نبي الله! فيكون قد دعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله تعالى يقول: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً [الجن:18] ويقول: قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً [الجن:20] ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {الدعاء هو العبادة } ويقول تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر:60].

فالذي يدعو غير الله يكون قد عبد غير الله, وأشرك به، وإن قال يا محمد! أو يا جبريل! أو يا علي ! أو يا حسين - كما يقول الروافض قبحهم الله- فهذا شرك, وهذا دعاء لغير الله, وهو من الشرك الأكبر -نسأل الله العفو والعافية-.

وإنما ندعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن دعا النبي صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أو استغاث بـه, أو اسـتجار بـه, أو أعطـاه شيئاً من خصائص الألوهية, فهـذا لم يـراع أنه عبد اللـه، بل جعله نده وشريكه، وما أكثر من قالوا بذلك.

ولكن -والحمد للـه- قد انتشر في أمـاكن كثـيرة, وظهر على أيـدي كثـير من الـدعاة أنه صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لا يعطى شيئاً من خصائص الألوهية أو الربوبيـة, وإنما هو عبد لله على ما ذكرنا.

التفريط في أخباره وشرعه صلى الله عليه وسلم

ثم فصّل الشيخ في مسـألة "ورسـوله" أي: من النـاس من يأتي بجانب التفريط, فيعلم أنه عبد, ولا يجعله إلهـاً ولا نـداً للـه, ولا شـريكاً لـه, لكنه لا يـؤمن بالشق الثـاني, وهو قوله: ورسوله.

كما قال الشـيخ: أنه يقـدم كلام النـاس، وأهـواء النـاس, والجماعـة، وعـادات القبيلـة، على كلامه صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، سبحان الله! إذاً أين الشهادة له بالرسالة؟!

أركان الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

إن معنى شهادة أن محمـداً رسـول اللـه: تصـديقه فيما أخبر.

فـأي شـيء يخبرنا به الرسـول صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ نصدقه، فـإن لم نصـدق الرسـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، معـنى ذلك أننا ما شـهدنا أنه رسـول الله حقـاً، وقد يخبرنا بأشـياء تسـتغربها عقولنـا، وأيُّ شـيء عقولنا نحن؟ ومـاذا كانت؟ وماذا أغنت عنا هذه العقول قبل أن يأتينا هـذا النـور وهذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ألم يكن عند العرب حكماء؟ كان عندهم شـعراء، فكـان

زهــير ينظم القصــيدة من الحــول إلى الحــول، وتســمى الحوليات، كلها حكم وعبر، فلم تنفعهم هذه العقـول والآراء والحكم، ولم تغن عنهم ولم تخـــرجهم من الظلمـــات إلى النور.

فالبعض -والعياذ بالله- يأتيه الخبر عن رسول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فيقول: هـذا لا يصح في العقـل, والعقل لا يصدقه!

فهـــذه العقـــول لا تغـــني شـــيئاً لمن لم ينقد ويســـلم ويستسلم ويصدق بكل ما أخبر به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فـإذا أخبرنا عن الله آمنا بالله تبـارك وتعـالى، وإذا أخبرنا عن ربنا سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى أنه يـنزل في الثلث الأخـير من الليـــل, ويقـــول هل من داع, هل من ســـائل, هل من مستغفر، آمنا وصدقنا.

وإذا أخبرنا أن الله تعالى فوق العـرش اسـتوى -كما في القرآن- آمنا وصدقنا.

وإذا أخبرنا أن النار حال أهلها كـذا وكـذا، وأن الجنة فيها كذا وكذا، آمنا وصدقنا.

وإذا أخبرنا بأن القبر إما نعيم, وإما عـذاب, وبيِّن وفصِّـل لنا ذلك، وكل شيء وصل إلينا عن رسولنا صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ نقول: آمنا وصدقنا.

وإذا أخبرنا بما رأى ليلة الإســراء والمعــراج, فلا يحصل لـدينا أي اعـتراض, حـتى الـذباب أخبرنا أن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، فلا نقــول: هــذا ناقل للجــراثيم، وكل الجـراثيم من الـذباب، ولا يصح أن أحد جناحيه دواء، إن من قال ذلك فليعلم أنه لم يؤمن ويصدق، فلا بد أن يقـول: آمنا وصدقنا.

والمهم أن يصح عنه أنه قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما إذا كان الحديث ضعيفاً أو موضوعاً أو مكـذوباً، فهـذا لا نـؤمن بـه؛ لأنه ليس من كلامه صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ, ولكن إذا ثبت أنه من كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فنـؤمن ونصدق به، وبكل ما يخبرنا به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ. وهـذا تصديقه فيما أخبر.

وأما طاعته فيما أمر: فلا يأمرنا بأمر فنقول: لا نستطيع.

ومثلما ذكر الشيخ أن بعض القضاة والمفتين وهـذا كـان في تلك الأزمنة حيث كـــان القاضي منهم يحكم بما أنـــزل الله؛ ولكن يخـالف بعض الأحكـام, ويقـول: المـذهب عنـدنا كذا، فتقول له: الحديث صحيح, فيقول: لكن المذهب يقول كذا، سبحان الله العظيم! هذا كلام رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ الـذي وإمـام المـذهب لـولا اتباعه له ما كـان إمامــاً, ولا صـاحب مـذهب، ثم يـأتي أتبـاعهم فيتمسـكون بالمذهب ويتركون الحديث!

لكن هذه أخف على ما فيه ممن جاء بعدهم.

حيث جئنا في العصور المتأخرة -والله المستعان- نشـهد أن محمداً رسول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، لكن أصـبح التحاكم ليس من الشرع بالكلية, فالمـذاهب وإن كـان فيها مخالفات أو أخطاء، لكنها مستمدة من الشرع.

أما الآن فأصبح التحاكم إلى القوانين الوضـعية، كقـانون نابليون .

ونابليون هذا ليس رسولاً جديداً، ولم يـدع أنه رسـول أو مصـلح أو مفكر أو محقـق، لكنه رجـلٌ أصـدر قانونـاً -ومن أحكام نابليون بعد الثورة الفرنسية- ونابليون هـذا نصـراني, لكن الثـورة الفرنسـية كما نقـرأ لها -مع الأسـف- يقولـون:

بـاريس عاصـمة النـور، ويقولـون: الثـورة الفرنسـية فجر الإنسانية وهي الـتي أعطت الإنسـان حق الإنسـانية, وحرية الإنسان, وهذا من آدابها, ومن أخلاقها.

فمن أحكــام نــابليون أن الزنا من حق الــزوج، أما في النصـرانية فالزنا حـرام، والعقوبة عليه الـرجم في التـوراة، والتوراة هي شريعة النصارى مع اليهود، فشريعتهم واحدة.

أما نابليون فقال: الزنا من حق الزوج، بشرط أن يكــون الزنا على فـراش الزوجيـة، أي: في بيت الـزوج، فـإذا زنت الزوجة خارج البيت فليس للرجل حق.

ثانياً: إذا سـمح لها بالزنا فهـذا من حقـه, وإذا لم يسـمح لها تغرم أو تسجن لمدة معينة.

ومع الأسف أن أكــثر الــدول الــتي تــدعي أنها تحكم بالإسلام, وتدعي أنها تشهد بـأن محمـداً رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأحكام والقوانين الوضـعية فيها على هـذا الأسـاس، وهو أن الزنا حق للـزوج، ولا يوجد فيها رجم أو لا جلد.

فنحن هنا -مثلاً- نسمع عن الرجم والجلــد، لكن في دول أخرى كثيرة -إن لم تكن جميعاً- لا تعرف رجمـاً أو جلـداً أو أمراً من أوامر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فيما يتعلق في هذا الأمر.

فالمسألة مسألة حرية شخصـية، فـإذا اسـتغاثت المـرأة بالشرطة فهذه تغاث, وتكون الدعوى دعوى اغتصاب فقط، وهذا يعاقب، وعندهم عقوبات معينة. أما إذا كـان بالتراضي فالأمر مباح.

فهذه هي شريعة نابليون .

فـإذا طبقها شـخص, وقـال: أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله, فإنه لا يكون شاهداً ولم يشهد -والعيـاذ بالله تبارك وتعالى- الشهادة, لأن شهادة أن محمداً رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ تقتضي وتسـتوجب وتتضـمن وحقيقتها؛ أنها تصديقه فيما أخـبر, وطاعته فيما أمـر، وذلك بإقامة دينه صلوات الله وسلامه عليه, والتحـاكم إليه وحـده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وإلى شرعه وسنته:

فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ حَرَجـاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً [النساء:65].

وهناك من يحكِّم الرسول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؛ لكن في نفسه حرج.

فمثلاً: رجل ملـتزم بالـدين ويقـول: لابد أن تبقى المـرأة في البيت, وتحتجب عن الأجانب, وهـذا هو الـدين، لكن في النفس بعض الاستنكار, ويود لو كان الحكم غـير هـذا, فهـذا هو الحرج، وكثير من الناس فيهم هذا.

مثلاً: إذا علم أنه لا يجـــوز أن تبعث المـــرأة للدراسة وحـدها في الخـارج, فيلـتزم بهـذا الأمـر, ويقـول: آمنا بالله تبارك وتعالى وسلمنا لحكمه, ولكن النفس فيها شيء، فهو يقـــول: إنه في عصر الحضـــارة وعصر التقـــدم, فهل من المعقول أن نقول المرأة والمرأة..؟

وكذلك الربا يقول بعض الناس: آمنا أن الربا حرام، فلن نضع أموالنا في البنـــوك الربويـــة, ثم تجـــده يقـــول: لكن الاقتصاد والحياة المتشابكة والأوضاع العالمية.

فهـــذا الـــذي يطيع وفي قلبه حـــرج هو لم يشـــهد حق الشهادة؛ بأن محمداً رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فكيف بالذي لم يـذعن ولم يطـع: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى

يُحَكِّمُـــوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ [النســـاء:65] ولا يكفي أنك تحكمه، بل لا بد أن ينتفي الحرج من نفسك، فقال في آخر الآيــة: وَيُسَــلِّمُوا تَسْــلِيماً [النســاء:65] أي: انقيــاد تــام لا مدافعة أو منازعة أو معارضة فيه.

فــإذا قــال رســول الله صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ شــيئاً، فنقــول: انتهينــا, ولا يوجد أي نقــاش. وتعــذر بــالواقع، ولا يقول: علم النفس, أو علم الاجتماع, أو خبراء الاقتصاد، فلا ننظر إلى هذا كله أبداً ما دام قد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وليقل غيره ما يشاء.

حتى في تربية أبنائنا, قالوا: لا تضربوا الولــد, فالمــدرس في كثــير من المــدارس إذا أتى بعصا يعــاقب, لأن التربية الحديثة عنـــدهم -التربية نوعـــان: التربية القديمة والتربية الحديثة، فالتربية القديمة تشتمل على العصا والإرهــاب في جملة وســائلها الجديــدة- تشــتمل على ديمقراطية وانفتــاح وحرية.

وإذا قلت لهم: الرســول صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ قــال: {مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر }.

قالوا: التربية الحديثة تقول: إن الضرب غــير صــحيح في التربية مطلقاً، فيكــون هــذا الشــخص مقتنعــاً بــأن الحــديث صحيح، ثم تجده يقــول: عنــدي مشــكلة المســائل الحديثــة, والدراســـات الحديثـــة, وعلمـــاء النفس الحـــديثين, وعلم الاجتماع الحــديث، ســبحان اللــه! هل هــذا كله يســاوي ذرة أمــام كلام رســول الله صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ! والله لا يساوي شيئاً، لا في الأخلاق كما مثلنا بما يتعلق بالمرأة, ولا في الأحكام كما مثلنا بالزنا.

وكــذلك في الآداب العامــة, فلا يمكن -حــتى في الهــدي الظاهر- أن يكــون هنــاك هــدي أهــدى من هديه صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ، ولا يجــوز أن نعــارض هديه صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ

وَسَلَّمَ أبداً، فعندما يأمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ بإعفاء اللحيـة, وإحفـاء الشـوارب -مثلاً- فلا نقـول: لا بـأس هي من الدين، ثم نبدأ نعلل ونتعـذر عن التطـبيق, فهـذا هو الــذي في نفسه حــرج, ولم يســلم ويــذعن، ولو أقر بأنه صــادق، فيجب أن يقر ويــذعن, ولا يبقى في نفسه حــرج, ويسلم تسليماً بأن سنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في اللحية, أو الســواك، أو تقصــير الثــوب، وأي عمل آخــر- هي خــير وبركة، وإن كان الإيمـان البـاطن هو الأسـاس، ولا شك في ذلك, ولا نطالب بالهدي الظاهر دون الهدي الباطن، ولا أحد يطالب بذلك من المؤمنين أو من الدعاة.

وبعض النــــاس يقــــول: لكن البعض يأخذ الشــــكليات والقشــور، وهــذا خطــأ، فالإســلام كله لب، ولا يوجد فيه قشــور، فكله لب وكله يؤخــذ، وإنما فيه ظــاهر وبــاطن، والإيمان الباطن أفضل وأعظم، وهذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ: {التقــوى هاهنا } ولكن الإيمــان الظــاهر واجب, ولا بد منه, ما كان منه واجباً, وما كان منه مســتحباً بحسب الأحكــام، لكن تركه بالكلية علامة على ضــعف أو نقص أو فقدان الإيمان الباطن.

إذاً هديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكله, ونومه, وثيابــه, وفي ســمته, ومظهـره، هو أفضل وأكمل هـدي، وهو الـذي يقتدى به ولا يقدم عليه قول أو رأي أحد, ولا هدي أحـد، ولا اجتهاد أو اقتراح أي إنسـان كائنـاً من كـان، حـتى وإن كـان من خيار الناس, وابن عباس رضي الله عنه يقول: [[يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رســول الله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وتقولـون: قـال أبو بكر وعمر]] فأفضل النـاس في هـذه الأمة بعد رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هما أبو بكر وعمر ، ومع ذلك لا يجـوز لأحـد؛ إذا قيل: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، أو حـدّث أحد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أن يقـول: لا أبو بكر قـال: كـذا, أو عمر قال: كذا، فكيف بغـيرهم مثل الأئمة الأربعـة, أو أي إنسان كائنا من كان! يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ [الحجرات:1] فالكلام كله كلام الله ورسوله, والهدي هدي الله ورسوله, ولا كلام لأحد مع هذين.

فمعـنى شـهادة أن محمـداً رسـول اللـه: تصـديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجــر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

10 - الأصلان العظيمان اللذان يقوم عليهما دين الإسلام

ودين الإسلام يقوم على أصلين:

الأصل الأول: ألا يعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

الأصل الثــاني: ألا يعبد الله إلا بما شــرع، وهــذا معــنى شهادة أن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنعبده وحده ولا نتوجه لغيره بالعبادة، ونعبده كما عبــده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فليس هنـاك طريق إلى اللـه, والجنة إلا طريق محمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ولو قال شخص: أنا سوف أجتهد أكـثر, وسـوف أفعل أشـياء ما فعلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيها مصلحة وخير كثــير, فيقـال لـه: قـال تعـالى: الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً [المائــدة:3] فمهما أدى الرأي والاجتهاد إلى أن هذا حق أو خير أو فيه مصــلحة فلا يجوز أن نعبد الله إلا بما شرع الله.

فلا ندعو إلى الله إلا كما دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا نصــلي إلا كما صــلى رســول الله صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ.

ونحج كما حج، ونصوم كما صام, ونذكر الله كما ذكر, ولا سبيل غير سبيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا صدقناه فيما أخبر, وأطعناه فيما أمر, واجتنبنا ما عنه نهى وزجر, وعبدنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما شرع، ولم نعبده بالآراء والأهواء والبدع، فنكون بذلك قد حققنا -إن شاء الله- شهادة أن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

11 - معنى أن عيسى عبد الله ورسوله

قال الشارح: ' قوله: وأن عيسى عبد الله ورسوله أي: خلافاً لما يعتقده النصارى, أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة؛ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ [المؤمنون:91].

فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله, على علم ويقين بأنه مملوك لله, خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران:59] فليس رباً ولا إلهاً, سبحان الله عما يشركون! قال تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [مريم:29-30].

وقال تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً [النساء:172] ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: أنه ولد بغي -لعنهم الله تعالى-.

فلا يصح إسلام أحد -علم ما كانوا يقولونه- حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: إنه عبد الله ورسوله '.

12 - أقوال الأديان الثلاثة في عيسى عليه السلام

أقول: إن موضوع عيسى عليه السلام هو -الآن وفي كل العصور- أكبر قضية خلافية بين أصحاب الأديـان ذات الكتب المنزلـــة، ففي العـــالم -الآن- يوجد أديـــان ليس لها كتب كـــالهندوسية في الهند , والبوذية وعبـاد النـيران, والأحجـار والأبقار في الهند والصـين واليابـان وكوريا وغيرهـا، فهـؤلاء ليس لهم كتاب, أو لا يدعون ذلك.

أما أصـــــحاب الكتب والرســـــالات الثلاثـــــة: اليهودية والنصـرانية والإسـلامية، هـذه الأديـان الكتابيـة، فالمعركة والخلاف والصـراع الأكـبر دائر بينها في قضـية عيسى عليه السلام، وخاصة مع النصـارى, بحيث لو حُلت هـذه القضـية, لانتهت المشكلة تقريباً.

فهي أكبر قضية موجودة، وهذه هي أقـوال هـذه الأديـان الثلاثة في عيسى عليه السلام.

عيسى عليه السلام عند النصارى

أولاً: يقـول فيه النصـارى الـذين يتبعونـه, ويـدعون أنهم على دينـه؛ إنه إلـه، أو ابن اللـه, أو ثـالث ثلاثة -تعـالى الله عما يقول الظـالمون علـواً كبـيراً- وزعمـوا أنه ابن الله لأن مـريم عليها السـلام جـاءت به تحمله من غـير أب، فقـالوا: كيف يكـون ابن من غـير أب, فجعلـوه ابن الله -تعـالى الله عن ذلـك- مع أن الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى كما ذكر في سـورة مـــــريم جعل الآية والنطق والشـــــهادة من فمه هو عليه السلام: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْـفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَـانَ فِي الْمَهْـدِ صَبِيّاً [مريم:29] فمريم لم تتكلم, لأنهم يشــكون فيها أنه -والعيـاذ باللــه- من الزنـا؛ ولكن أشـارت إليه بأنه هو الـذي يجيبكم إذا كان عندكم شـك, فقـال: إِنِّي عَبْـدُ اللَّهِ [مـريم: 30] فهو عبد اللـه, وهـذا الـذي نقولـه: أن عيسى عبد الله

ورسوله.

فأول ما نطق عيسى, قال: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ [مريم:30] وسمعوا ذلك ونقلوه؛ ولكن بعد ذلك قالوا: هو ابن الله, أو هو إله, أو ثالث ثلاثة -تعالى الله عما يصفون- فيسبون الله تبارك وتعالى -وما ينبغي لهم ذلك- هذه المسبة العظيمة, بأن يجعلوا له صاحبة وولداً، وقد قال سبحانه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ [الإخلاص:1-4].

فهذا هو ديننا -والحمد لله- نحن المسلمين, فنحن نخالفهم في هذا مخالفة صريحة واضحة, وكل مسلم -والحمد لله- يعلم ذلك، فنحن نشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يلد ولم يولد, وأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عيسى عليه السلام عند اليهود

ثانياً: أما اليهود فقالوا: إنه ابن زنا -نعوذ بالله من ذلك وقبحهم الله, ولعنوا بما قالوا- فقالوا على مريم بهتاناً عظيماً, وافتروا عليها هذا الإفك العظيم, ورموها هذا الرمي بهذه الفاحشة.

عيسى عليه السلام عند المسلمين

ثالثاً: فكانت الأديان الثلاثة, لها آراء ثلاثة: القول بأنه إله, والقول بأنه ابن زنا -عياذاً بالله- وليس برسول، وهؤلاء اليهود والنصارى.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه, فتوسطوا, وقالوا: هو عبد الله ورسوله، ليس بإله فنغلو فيه، وليس بابن زنا -نعوذ بالله تبارك وتعالى- فنفرط كما قالت اليهود، بل هو عبد الله ورسوله.

وهذه القضية -هي الآن- معركة مســتمرة, وهي معركتنا مع النصــارى في هــذه الأيــام, فالنصــارى يريــدون بكل الوسائل أن يغـيروا عقـول المسـلمين, وأن يفسـدوا عليهم عقيدتهم ودينهم, وأن يجعلوا طوائف منهم تتنصر وترتد عن الإســلام, وتشـــهد بـــأن عيسى بن الله -تعـــالى الله عما يصــفون- وأنه الــذي فــدى العــالم, وأنه المخلص الــذي خلصهم، وأنه قد صلب, والله تعـالى يقـول: وَمَا قَتَلُـوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ [النساء:157].

ولذلك إذاعات الإنجيل وصوت الإنجيل وساعة الإصـلاح -كما تسمعونها في الإذاعات- تزاحم إذاعة القـرآن, وتـزاحم الإذاعات الأخـرى, فـأكثر دول العـالم تبث هـذه الإذاعــات، وكثير من بلاد العالم الإسلامي, مثل أندونيســيا وبنجلادش ، وبسـبب الجـوع والفقر والحاجة -كما في بعض دول أفريقيا أيضاً- نُصِّر أبناء المسلمين فيها.

وهم الآن يشــترون أطفـــال المســلمين في أفريقيا ، ويـذهبون بهم إلى السـويد , والـنرويج , والـدانمارك وكنـدا وغيرها ويربوهم ليصـبحوا نصـارى، ويعلمـوهم دينهم، وهـذا شيء واضح ومعلوم لدى العالم كله.

وهـذه هي حقيقة العـالم الإنسـاني المتحضر المتطـور, الــذي يــدّعي العـدل والإنسـانية والمسـاواة الـتي هي في الحقيقة لغير المسلمين، ومع ذلك فهم مجتهــدون في هـذا الباطـل وفي هـذا الكفـر، الـذي يسـألهم الله تعـالى يـوم القيامة عنه ويكـذبهم عيسى عليه السـلام: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَــى ابْنَ مَــرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِــذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائدة:116] فيكذبهم عيسى يـوم القيامـة, ويكذبهم الله عز وجل في ذلك.

ومع ذلك فهذه العقيدة الباطلة أصبح يــراد لها أن تنتشر في بلاد المسلمين, وهذه المجلات التي تضع ركن التعـارف

-صـفحتين- حيث يرسل الشـخص صـورته -طفل أو شـاب- ويضع الهواية: المراسلة, أو كـذا, فيـأتي هـؤلاء المجرمـون النصــارى، فيجــدون مكتوبــاً الهواية المراســلة والعنــوان موجــود، فيرســلون إليه على عنوانه أو صــندوق البريد أو المؤسسـة, الإنجيل وبعض النشـرات, والكتب، وتقع في يد جاهل أو امــرأة, وأكــثر النــاس على جهــل, فيقع في قلبه شيء من هذه العقائد الباطلة -والعياذ باللـه- وهـذا دليل أو جزء من أدلة كثيرة على خطر هـذه المجلات وفسـادها، ما عدا المجلات الإسلامية الطيبة.

فهم الآن يريــدون أن يــدخلوا إلى بلاد المســلمين بــأي طريقة من الطرق, ويظهرون أمامنا أنهم يحترمون الأديان, وأن الإنسان حر يدين بما يشاء، وأن من حقوق الإنسان أن يعتقد ما يشـاء, فـإذا جئنا عند التطـبيق وجـدناهم يقصـدون بهذا أن المسلم يجوز أن يرتد ويصبح من النصارى -والعيـاذ بالله- وكثـير من النـاس يخفى عليهم هـذا, وقد يظنـون أن هذا شيء بعيد أو مستبعد.

والحقيقة أن هــذا الأمر واقــع، والأمثلة والشــواهد عليه كثيرة, لا يتسع المقام لها.

ولكن من ضعف إيماننا وتخاذلنا وهواننا على الله -ونعوذ بالله- وعلى أهل الأديـان, أنه حـتى النصـارى طمعـوا فينـا، وأصبحوا يطمعون أن يخرجوا المسلم من شــهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ, إلى أن يشــهد بــأن عيسى ابن الله أو أنه هو الإله -تعــالى الله عما يصفون-.

13 - باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

ونضــطر للوقــوف عن إكمــال بــاب: فضل التوحيد وما يكفر من الــذنوب، ولنشــرع في بـاب آخر مهم، وهو بـاب: الــدعاء إلى شــهادة أن لا إله إلا اللــه؛ لأهميته في حياتنــا،

وفي واقعنا، وكل الأبواب مهمة بلا ريب.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: ' باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وقول الله تعالى: قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يوسف:108].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: {إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله -وفي رواية: {إلى أن يوحدوا الله }- فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب } أخرجاه ".

أقول: جعل الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه لهذا الباب عنواناً وهو: "الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله" ضمن كتاب التوحيد ، ولا شك أن المناسبة والعلاقة بين الباب وبين كتاب التوحيد واضحة، إذ أن الكتاب عن التوحيد، وهذا الباب هو الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وهو الدعاء إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا تجدون أن الشيخ لما ذكر حديث معاذ ، أتى بالرواية التي فيها: { إلى شهادة أن لا إله إلا الله } والرواية الأخرى التي فيها: { إلى أن يوحدوا الله } فشهادة أن لا إله إلا الله هي التوحيد، والكتاب كتاب التوحيد ،فهو يريد رحمه الله أن يبين لنا أهمية وضرورة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وقد ذكر في صدر هذا الباب قول الله تبارك وتعالى من آخر سورة يوسف: قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى

بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يوسف:108] وهذه الآية تستحق وقفة طويلة جداً.

14 - منهج الدعوة إلى الله

وهذه الوقفة سببها أن منهج الدعوة كله مُتضمَن فيها، لكن لا نستطيع الآن أن نوفي الآية حقها، ولكن سنشير إليها فقط إشارة لمناسبة ورودها في هذا الباب.

أولاً: في الجملة الأولى: يقول الله تبارك وتعالى لعبده ورسوله وخيرته من خلقه؛ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام الدعاة، وسيد الهداة: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي [يوسف:108] فيأمره ربه تبارك وتعالى أن يقول للناس ولكل من يصلح له الخطاب: هَذِهِ سَبِيلِي [يوسف:108] أي: هذه طريقتي وقضيتي وشأني ووظيفتي ومنهجي.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا هو منهجه وسبيله وعمله ودعوته، وكل إنسان له منهج في هذه الحياة،وكل مخلوق، وكل بشر في هذه الدنيا له هدف يريد أن يحققه، وله منهج يسير عليه.

والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجز له ربه تبارك وتعالى منهجه وسبيله في هذه الآية، كما بين له في الآية الأخرى من أواخر سورة النحل: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل:125] فبين له هنالك كيفية الدعوة وأسلوبها.

وهاتان الآيتان إذا فقهناهما حق الفقه والمعرفة، نستطيع أن نعرف الدعوة غايةً وأسلوباً، دون أن نحتاج إلى منهج آخر من اجتهاد الناس أخطئوا أو أصابوا.

فالدعوة هي طريق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبيله، فهو ليس زعيماً ولا ملكاً سياسياً يريد أن يفرض سلطاناً،

ولا صاحب أو طالب مال أو جـاه أو شـهرة، أو شـهوة، كما يفعل أكثر الناس عادة، فالـدعوة إلى الله تعـالى هي عمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهي تبعــاً لــذلك عمل من بعــده، قــال: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108].

الدعوة إلى الله وحده

و نقف وقفة عند قولـه: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسـف:108] فكثـير من النـــاس يـــدعون، بل في الحقيقة لو تأملنا فإنا لا نجد أحداً في هذه الدنيا إلا وهو داعية يدعو إلى شيء ما، فأنت لو جلست مع أي إنسان ستجد عنـده فكـرة سـيطرت على فكره واهتمامـه، فهو يـدعو إليهـا، ويحب أن النـاس جميعـاً يكونون عليها، وكل إنسان له رأي، وله هدف، سـواء كـانت نظرته عامـة، بحيث يخطط للعـالم أجمـع، أو نظـرة محلية يخطط لمدرسته أو لقريته، أو لبيته وأسرته، المهم أن لديه منهجاً معيناً.

فكل إنسـان داعيـة، وكل إنسـان يـدعو إلى شـيء مـا، ولكن ميزة رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ ومن اتبعه أنهم يدعون إلى الله وحده لا شريك لـه، وكفى بالله تبـارك وتعالى وكيلاً، وكفى به حسيباً.

والـدعوة إلى الله عنـوان يدعيه وينتسب إليه كثـير من الناس -غير الذين يدعون إلى ضلالات وشرك وإلحـاد- ممن يدعون إلى الإسلام، وكلهم يرفعون راية الـدعوة إلى اللــه، ولكن هنا يجب أن نقف ويجب أن نتأمـــل، كما ذكر الإمـــام رحمه الله تعالى في تعقيباته ورسائله: أن بعض النــاس قد يدعو إلى نفسه.

فكثـيرٌ من النـاس عنوانه الـدعوة إلى اللـه، ولكن عمله دعـوة إلى غـير الله -نسـأل الله العفو والعافيـة- وإن كـان

يدعي الدعوة إلى الله، فقد يدعو الناس إلى شيء غير الله عز وجل كأن يـدعوهم إلى رأي ارتـآه، ويـرى أنه دين اللـه، وليس هو دين الله، أو إلى إمام وإن كان من أئمة الدين، أو إلى رأي معين، أو طائفة أو فرقة من الفـــرق، يـــدعو إليها ويجتهد في الـدعوة إليهـا، ويقـول: إنه يـدعو إلى اللـه، وهو في الحقيقة يدعو إلى ما دعا إليه، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: {فمن كـانت هجرته إلى الله ورسـوله، فهجرته إلى الله ورســوله، ومن كــانت هجرته لــدنيا يصــيبها أو امــرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه } فكذلك من كان يــدعو إلى اللـه، فدعوته إلى اللـه، ومن كـان يـدعو إلى غـير الله فهو يدعو إلى ما دعا إليه، وإن لبَّس على الناس بأنه يــدعو إلى الله.

علامة الداعية إلى الله

إن علامة الإنســان الــذي يـدعو إلى اللـه، هو أن يكــون مؤمناً بطريقة النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، متبعـاً لسـنته وسبيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الـدعوة إلى اللــه، فيهمه أكــبر الهم ويســعى غاية الجهــد؛ لأن يعــرف النــاس ربهم ويوحدونـــه، ويعبدونـــه، ولو لم يـــذكر هو أو لم يعــرف، ولا يدعوهم إلى شيء غير الله، كائناً ما كـان ذلك الشـيء، بل إلى كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن تكلم فحثاً على كتاب الله وسـنة رسـوله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وإن أمر فبما أمر به اللــه، وإن نهى فعما نهى عنه الله ورسوله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فهدفه وغايته هو ذات الله تبــارك وتعــالى، فهو يحب في اللـــه، ويبغض في الله، وليس له هدف غير ذلـك: قُـلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ [يوسف:108].

الدعوة إلى الله على بصيرة

وهنا أيضاً وقفة قصيرة، عند قوله تعالى: عَلَى بَصِيرَةٍ [يوسف:108] فالبصيرة من مقتضياتها العلم، والدعوة إن لم تكن على علم فليست على بصيرة قطعاً، والذي لا علم لديه فليس لديه بصيرة.

ومع العلم أيضاً فقه الدعوة، ولا بد منه، فنعرف كيفية دعوة الناس، ومخاطبتهم وكيفية التعامل معهم، وهذا أيضاً من ضمن البصيرة.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الكرام، ضربوا لنا أروع الأمثال في منهج وأسلوب الدعوة إلى الله على بصيرة، ويشهد لحسن دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبصيرته أن آمنت به تلك الأمم، فآمن به كفار قريش بعد الجدال والمعاندة.

فيأتيه الرجل الذي لا يعرف شيئاً من دين الله، ولا يفقه شيئاً من أمر الله، فيترفق به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبين له، كما فعل مع الأعرابي الذي بال في المسجد، وكما فعل مع معاوية بن الحكم السلمي لما تكلم في الصلاة، وغيرها وقائع كثيرة.

فكل من رأى هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو رأى الصحابة من بعده يحبهم، ويؤمن بما يدعون إليه، ويستجيب لهم إلا من كتب الله عليه الضلالة، فهم دعوا إلى الله على نور وبرهان وبالأسلوب الحسن الحكيم.

ثم قال: أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [يوسف:108] وفي هذا تنبيه وتوجيه لنا نحن أتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه يجب أن نكون كذلك أيضاً، وأن تكون طريقنا وسبيلنا وهمنا الدعوة إلى الله، وهذا لا يعني أن نعطل أعمالنا، بل يدعو كل إنسان منا في واقع عمله.

فالتاجر يدعو إلى الله في تجارته، والفلاح في فلاحته،

والطـــالب في طلبه للعلم، والموظف في وظيفتـــه، وكل إنسان يكون داعية إلى اللـه، ويكـون سـالكاً لمنهج رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

غاية الدعوة إلى الله

ثم قـال: وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ [يوسـف: 108] في هذا تنزيه لله تبارك وتعالى، وهذا أمر عظيم وهو أن تنزه وتقدس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يوسـف:108] وهو الخاتمـة، الـبراءة والتـبرؤ من الشـرك ومن المشركين، فدعوتنا أولها الدعوة إلى اللـه، وخاتمتها - وهي معها دائمـاً- الـبراءة من الشـرك والمشـركين، وهـذه هي غاية الدعوة.

فغاية ما نسعى إليه دائماً هو تحقيق توحيد الله وشـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ والبراءة من الشرك والمشركين.

15 - إرسال معاذ إلى اليمن

ولهذا عقب رحمه الله على ذلك بحديث معاذ رضي الله عنه لما أرسله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن ، ولنا أيضاً وقفات مع هذا الحديث.

سبب اختيار معاذ دون غيره

أولاً: اختيار النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لــمعاذ رضي الله عنـه، لأن له صـفات تؤهله لأن يكـون داعيـة، فلو جـاء أعرابي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، من أعـراب بـني تميم، وأسلم في ذلك اليـوم، فـإن النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ لن يقول له: اذهب إلى اليمن وادع النـاس، لأن هـذا المدعو يحتاج أولاً إلى أن يتعلم ويتفقه.

وأيضاً: لم يختر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ -مثلاً- خالد بن الوليد أو عمـــرو بن العـــاص ، أو غـــيرهم من قـــواد الجيـوش، الـذين دكـوا حصـون الضـلال والكفر والإلحـاد، لإرسـاله للـدعوة إلى الله في اليمن ؛ لأن المسـألة ليست مسـألة جهـاد أو سـيف إنما هي مسـألة علم وفقه بالـدين, ومعرفة الحلال والحرام، فلا شك أن يختار النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذاً رضي الله عنه، وهو أعلم الناس بـالحلال والحرام، فهو من فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، وقد نفع الله بعلمه خلقاً كثيراً في اليمن ،كما نفع به في الشام بعد عودته، وفيها توفي رضي الله عنه.

وقد قال له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: {يا معـاذ ! إني أحبك } وهـذه الـدنيا وأي إنسـان كائنـاً من كـان، لا يسـاوي شـيئاً بالنسـبة إلى قـول خليل الـرحمن وحبيبه ومصطفاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {يا معـاذ ! إني أحبك } فهـذه الكلمة أكـبر وسـام، وأعظم شـرف، حيث يكفي أن يحبه رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، والمـرء مع من أحب، وهـذه تزكية من النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وإرساله إلى اليمن تزكية أخرى، ثم أوصاه صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ.

ومن مجمـوع القصة والأحـاديث الأخـرى نعلم أن في الأمر وصيتين:

الأولى: وصـية لـمعاذ رضي الله عنه في نفسه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثانية: وصية له في منهجه في الدعوة.

وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ في نفسه

أما وصيته التي أوصاه بها في نفسه فقال له: {اتق الله حيثما كنت، وأتبع السـيئة الحسـنة تمحهـا، وخـالق النـاس

بخلق حسن } وهـذه وصـية في المعاملة وفي الجـانب الإداري، وفي الجـانب الشخصـي: { اتق الله حيثما كنت } أمـيراً أو مـأموراً، حيث ما كـان موقعك أو وظيفتك أو عملـك، وهـذه وصـية جامعة مانعـة، والجملة الأولى: { اتق الله حيثما كنت } وضح بها النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لـمعاذ ولنا جميعاً كيف نتعامل مع الله بالتقوى.

وكيف نتعامل مع أنفسنا، قـال: { وأتبع السـيئة الحسـنة تمحها } فـالنفس هـذه لوامة مذنبة خاطئـة، ودائمـاً لو أطعتها لأوردتك الموارد والمهالك، فكلما عصت الله، وكلما ارتكبت السـيئة فأتبعها حسـنة تمحهـا، واجعل من نفسك رقيباً عليها، وحاسب نفسك قبل أن تحاسـب، وزن أعمالك قبل أن تـوزن، وتـزود للعـرض الأكـبر بين يـدي الله تبـارك وتعالى.

فإذا أخطأت خطيئة فأتبعها حسنة: إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ [هود:114].

ثم قال له: { وخـالق النـاس بخلق حسن } وهي في كيفية التعامل مع الناس بالأخلاق الحسنة، فبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحـديث الجـامع المـانع،وفي هـذه الوصـية لـمعاذ رضي الله عنه عند ذهابه إلى اليمن ، كيف يتعامل مع اللـه، وكيف يتعامل مع نفسه وهـواه، وكيف يتعامل مع النـاس، ثم أوصـاه بالوصـية الـتي هي موضـوع درسنا، وهي بالنسبة لذهابه إلى اليمن .

واليمن أرض مباركة طيبة، والله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى فضّـل أهل اليمن بقبول البشرى من رسول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فلما قـدموا إلى النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ مع الوفود، وجـاء وفد بـني تميم، قـال رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {اقبلوا البشرى يا بني تميم! قال بنو تميم: قد بشـرتنا فأعطنا } فهم جـاءوا يريـدون العطـاء، ومعـنى كلامهم: نحن نعرف الذي عندك، تريد أن تقول: اتقوا اللـه،

والجنة والنار... هـذا معـروف، لكن نحن نريد دراهم! وهـذا كحـال كثـير من النـاس اليـوم، الـذين يقـدمون ويحبـون العاجلـة، ويـؤثرون الحيـاة الـدنيا على البشـرى والخـير والفائـدة، وعلى الكـنز الـذي لا يفـنى عند الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو النعيم الدائم.

قالوا: {قد بشرتنا فأعطنا، قـال: اقبلـوا البشـرى يا أهل اليمن ! قالوا: قبلنا يا رسـول الله } فقبلـوا وجلسـوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وفي حـديث آخر وهو حـديث عمران بن حصين رضي الله عنه الـذي له مجـال غـير هـذا المجال.

فالمقصود أن هؤلاء القوم قدموا وأذعنوا وآمنوا من غير جهاد، فدخلوا في الإسلام طواعية، وآمنوا بهذا الدين، وأراد النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أن يرسل إليهم من يعلمهم، ومن يفقههم، فأرسل معاذاً رضي الله عنه.

وصـية النـبي صـلى الله عليه وسـلم لمعـاذ في منهج الدعوة

ثم افتتح الوصـية بقولـه: { إنك تـأتي قومـاً من أهل الكتاب } وهذه هي الحكمة والبصـيرة في الـدعوة، حيث يبين له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هم المدعوون، لأن الخطاب يختلف عندما تذهب إلى أناس تاركين للصـلاة عما إذا لو كنت تـذهب إلى أنـاس يصـلون؛ لكن مرضـهم الغيبة والنميمة والفساد في الأرض.

ويختلف إذا كنت تذهب إلى أنـاس من أهل الخمر والزنا والفجور، أو من أهل الشرك وأهل البدع، والبدع أنـواع، فلا تـذهب تخـاطبهم عن بدعة ليست عنـدهم وعنـدهم بـدع وعـادات وتقاليد أخـرى، فتتكلم في واد وهم في وادٍ، هـذا ليس من أسلوب الدعوة.

فبين له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستعد ويتهيأ، لأنهم من أهل الكتاب، وذلك لأن أهل الكتاب عندهم حجج وجدل، وقد عانى منها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة ، ومعاذ رضي الله عنه يعرفهم، ويعرف اليهود وما عندهم، فقوله: { تأتي قوماً من أهل الكتاب } فيها بيان لنا نحن جميعاً بضرورة معرفة المدعوين إذا أردنا أن ندعوهم.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله } فهذه هي الكلمة العظيمة التي حولها يدندن كل الدعاة، الكلمة التي قامت بها السماوات والأرض، فإذا قيل: هم يحتاجون إلى الأخلاق الطيبة، ويحتاجون أن يدعو إلى ذكر الله، ويحتاجون أن يدعو إلى الآداب والمعاملات الحسنة، وأمور كثيرة جداً يحتاج أهل اليمن وأهل الكتاب وغيرهم إليها، والناس في كل زمان ومكان يحتاجون إليها.

فنقول: لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدد، ولم يتركها لنا ولاجتهادنا، ولم يتركها لآرائنا أو آراء شيوخنا، بل حدد بقوله: { فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله } فهي أول الأمر وآخره.

فإذا أردنا أن ندعو الناس فلنبدأ بشهادة أن لا إله إلا الله، وهنا يقول بعض الناس: الشهادة موجودة، وإذا كانت موجودة، فلننتقل إلى ما بعدها، والحديث بين لنا ما بعدها، فنقول: هل فعلاً هي موجودة ونتأكد؟

لو كانت شهادة أن لا إله إلا الله موجودة حقيقة في هذه الأمة، وما ينقصها إلا الأخلاق أو الآداب أو المعاملات أو أي شيء، فهل سيكون حالها من الضعف والذل والهوان والانحطاط والفرقة كما هو حالنا الآن؟! مستحيل أبداً، لأن الله كتب العزة، والنصر والتوفيق والتأييد لأمة التوحيد، وكما تقدم في في آية الأنعام، أن الأمن والهداية لمن جاء بالتوحيد وحققه.

أما الذنوب فلا يخلو مجتمع منهـا، ولكن لأن الأمر واقـع، وهو أن التوحيد وحقيقة الشـــــهادة ضـــــعيفة أو قليلة بل مفقـودة في بعض المجتمعـات، ولا حـول ولا قـوة إلا بالله تبارك وتعالى.

فأول ما نبـدأ به إذا ذهبنا إلى أي بيئة أو إلى أي إنسـان؛ أن نخاطبه بهذا الشيء، كما قـال صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: { فليكن أول ما تدعوهم إليـه: شـهادة أن لا إله إلا الله } فكل واحد منا ينظر إلى نفسه، وإلى هذا الدين، وإلى حـال المدعوين أجمعين، فدخولنا في هذا الدين بشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو رمزنا وشـعارنا وعنواننـا، وإذا أراد أحد أن يُسلم على يديك، فلا بد أن تبين له شـهادة أن لا إله إلا الله وأن تدعوه لها، فهذا أول ما يدخل به الإنسان في الإسلام.

وإذا جئت عند إنسان في الاحتضار في نهاية الحياة، وهو أن يسـلم الــروح، فإنك تعلمه وتلقنه شــهادة أن لا إله إلا الله.

فشهادة أن لا إله إلا الله هي أول الأمر وآخره، فـأول ما نبدأ بشهادة أن لا إله إلا الله، وآخر ما ندعو إليه شـهادة أن لا إله إلا الله، وما بينهما كله دعـوة إلى شـهادة أن لا إله إلا الله، وإن دعوت إلى صـلاة أو زكـاة أو أي شـيء فلأنها من حقوق وواجبات ومكملات شهادة أن لا إله إلا الله.

فإذا قلنا: إن أول شيء ندعو إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله، فكلمة أول هنا تحتمل معنيين كلاهما حق:

المعنى الأول: بمعنى نبدأ بها قبل غيرها، كما نقول: أول شيء، بمعنى الذي لا يسبقه غيره.

والمعنى الآخر: أول ما ندعو إليـه، أي: أهم شـيء نـدعو إليه.

فهي في الحقيقة الأولى وبها يبدأ، وهي الأولى أيضاً من جهة أنها أهم شيء، فشهادة أن لا إله إلا الله هي أول الأمر وآخره.

وقال رحمه الله: وفي رواية: { إلى أن يوحـدوا الله } وفي الحقيقة هي ثلاث روايـات في هـذا الحـديث كلها صحيحة، وبعضها يشرح معنى بعض.

ففي روايـة: {إلى شـهادة أن لا إله إلا الله } وفي رواية {إلى أن يوحـدوا الله } وفي رواية {إلى أن يعبـدوا الله } وهنا نستطيع أن نقول: إن هذا تصرّف من الـراوي بالمعنى، والمعاني كلها حق، وكلها تـدل على شـيء واحـد، فشهادة أن لا إله إلا الله، هي توحيد الله وهي عبادة الله.

فإن دعونا إلى عبادة الله فمعناه أننا ندعو إلى التوحيـد، وإن دعونا إلى التوحيد فمعنـاه أننا نـدعو إلى شـهادة أن لا إله إلا الله، فكل هذه المعاني حق وكلها صحيحة، وأياً كـان الأمر فلا اختلاف على الإطلاق بين هذه الروايـات فـالمعنى واحد، وهو البدء بالتوحيد وبالشهادتين.

ثم أخبره وأمره بعد ذلك: { فإن هم أطاعوك لـذلك } إذاً لا ينتقل إلى شيء بعدها، والمعركة تظل فيها هي، فمن دعونـاه إلى شـهادة أن لا إله إلا الله ولم يطـع، فـالأمر فيه ثلاث خيارات دائماً، عرضـها النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وأمر قادة جيوشه بها، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم: إما الإسـلام، وإما السـيف،وإما الجزيـة، ولا يوجد غـير هـذه الثلاث.

فلا يوجد أخـوة إنسـانية يختلط الكفـار فيها بـالمؤمنين، ويقولون: كلنا أسرة إنسانية، ففي شريعة محمد صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لا يوجد بيننا وبينهم إلا السـيف، والله تعـالى ينصر من يشاء، وقد وعد وتأذن بأن ينصر عبـاده المؤمـنين المتقين: إِنَّا لَنَنْصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر:51] وقال تعالى: وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ

مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج:40]

فالإسلام إذا قبلوه فهذا هو المطلب الأساس، ولا حاجة حينئذٍ إلى جهادهم ولا إلى الجزية، بل لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

فأولاً: الإسلام فإن قبلوه فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبو الإسلام فالسيف أو الجزية.

والجزية يدفعونها: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التوبة:29] بصغار وذل وخضوع والتزام لأحكام الإسلام، ولا يوجد مع الكفار غير هذه الأحكام الثلاثة،وحالة الصلح معهم أو العهد بيننا وبينهم حالة مؤقتة.

لكن هذه هي الأحكام الأصلية الثابتة من حيث المبدأ، ويمكن أن نتصالح مع بعض الكفار فترة من الزمن، وهؤلاء يسمونهم المصالحين أو المعاهدين.

لكن الأصل إن هذا الصلح ينتهي: إما إلى أن يسلموا، أو يكابروا ويعاندوا وينقضوا العهد فالقتال، أو يدفعوا الجزية.

وهذه المعاملة ربانية إلهية،وهي التي يجب أن تكون بين المسلمين وبين الكافرين.

وبعد أن نبين لهم التوحيد ويستجيبوا لكلمة التوحيد وللشهادتين، يكون البيان للركن الثاني.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عبثاً أن جعل أركان الإسلام خمسة، وأن يكون أولها الشهادتين، ثم ثانيها الصلاة، ثم ثالثها الزكاة، فهذه لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى.

وقد ذكر الله في القرآن؛ والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث هذه الأحكام مرتبة، يقول الله تبارك وتعالى:

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَـاةَ فَـإِخْوَانُكُمْ فِي الـدِّينِ [التوبـة:11] وفي الآية الأخـرى يقـول فَـإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ فَخَلُّوا سَـبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ [التوبة:5] وفي حـديث ابن عمر رضي الله عنه قـال: قـال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {أمرت أن أقاتل النـاس حـتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة } وهذا الحـديث يقـول فيـه: {فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللـه، فـإن هم أطاعوك لذلك، فـأعلمهم أن الله افـترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة } فيوجد فرق في أن يكـون الإنسـان منا طـالب علم، ووفقه الله أن يتفطن لهـذا الشـيء، وهـذه الثلاثة بالـذات، فيـدعو إليها وبين أن يكـون غير ذلك.

وكما هو واضح أن هذا هو منهج الدعوة إلى اللـه، وبعض العلماء ذكر بعض الحِكَم في إيراد هـذه الثلاث دون الصـوم والحج،وليس هذا تقليلاً من شأن الصيام والحج، لأن الصوم كـانت الـدعوة إليه والأحكـام المترتبة عليه أقل من الزكـاة والصـلاة؛ لأنه عبـادة خفية وخاصة بالإنسـان، وكل إنسـان يستطيع أن يقول لك: أنا صائم، والحج لأنه مرة واحـدة في العمر، فكان إجراء أغلب أحكـام الإسـلام لا يكـون إلا بهـذه الثلاثة: الشهادتين والصلاة والزكاة.

فهذه هي أهم الأركان، ولذلك دعا إليها النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،وأمر معاذاً رضي الله عنه أن يدعو إليها.

التدرج في دعـوة الناس

كلنا نريد الحق وهدفنا الحق في دعوتنا، ونرجو أن نكون مخلصين -إن شاء اللـه- جميعـاً في دعوتنا إلى اللـه، لـذلك نبدأ بما بـدأ الله بـه، ونـدعو إلى ما دعا الله تبـارك وتعـالى إليه، في أسرتنا وفي مجتمعنا، وفي أي مكان نـذهب إليـه،

فهذا هو منهج الدعوة، ندعو أولاً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -مع الإخلاص- وعلى بصيرة، وندعو إلى أن يوحد الله، وألا يعبد إلا الله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25] فهذه هي دعوة جميع الرسل الذين أرسلهم الله، وذكر الله تبارك وتعالى لنا في القرآن نوح، وهود إلى عاد، وصالح إلى ثمود وغيرهم،كلٌّ منهم يقول لقومه: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:59] إذاً هذا أول شيء، وهو أعظم ما ندعو إليه.

ثم ندعو الناس بعد ذلك -في الأهمية والوقت- إلى أداء الصلاة، لأنه: لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، ثم بعد ذلك ندعوهم إلى الزكاة والأخلاق والآداب والمعاملات، ولا نقلل من أهميتها، ولكنها بعد ذلك.

فالإنسان إذا وحد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حق التوحيد، وعرف الله حق المعرفة، وصلى الصلاة كما أمر الله تبارك وتعالى، وزكى ماله وتصدق، هذا في الحقيقة لن يرتكب -بإذن الله تعالى- محرمات، وإن وقع فيها فهو على سبيل الخطأ العاثر، ولكن إذا تحقق لديه هذا الأصل فقد تحققت القاعدة القوية التي يبنى عليها إيمانه والتي يكون كل الأعمال محورها ومرجعها إليها.

ولذلك كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيح- يرسل السرية من الجيش للجهاد في سبيل الله، فيأمرهم أن يذهبوا في الليل وينتظروا، فإن سمعوا الأذان وإلا أغاروا، وهذا من أحكام التعامل، أما إذا كان يأتي على بعض القرى حالات لا يؤذن فيها، أو أفراداً لا يجيبون داعي الله سبحانه فهذا شيء آخر، ولكن الكلام هنا في المجتمعات، فالمجتمع الذي لا يؤذن فيه، يستحق أن يجاهد، وأن يغار عليه،ولا يكفي اسم الإسلام وأن الإنسان مسلم، بل لا بد أن يَصْدق الإنسان إذا قال أنا مسلم، فيشهد أن لا إله إلا الله ويرفع بها صوته،وينادي بها،ويجتمعون في بيت الله لتحقيقها وأداء الصلاة.

وإن كان الأمر غير ذلك فيجب أن يجاهدوا، ولو أن قوماً أقـاموا الصـلاة؛ ولكن تركـوا الأذان وجب جهـادهم على المسلمين على تـرك هـذه الشـعيرة العظيمـة، فيجب علينا أن لا نسـتهين كما هو الحـال عند بعض النـاس بالشـعائر، ويجب أن نقـدرها حق قـدرها، فرفع كلمة اللـه، ورفع الأذان،والصـدع بشـهادة أن لا إله إلا الله في الآفـاق، هـذا مطلب وشـعيرة عظيمـة، والاجتمـاع في بيـوت الله لأداء الصلاة شعيرة عظيمة أيضاً.

فلا يقل الإنسـان: الحمد لله أصـلي بعض الأوقـات في المسجد، وبعض الأوقات في البيت، فـإن هـذه مسـألة أهم مما قد يتصـور كثـير من النـاس، ولا نسـتطيع أن نوردها بالتفصيل فيما يتعلق بصفة أو بأحكام صلاة الجماعة، وصفة الأمة المؤمنة الـتي تقيم شـعائر الله حقـاً، كما أمر الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

16 - باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

تقـدم الكلام عن بـاب فضل التوحيد وما يكفر من الـذنوب، وعلى بـاب الـدعاء إلى شـهادة أن لا إله إلا اللـه، وعرفنا والحمد لله أهمية هـذه الشـهادة وحقيقتها ومضمونها.

ثم إن الشـيخ الإمـام المؤلف محمد بن عبد الوهـاب رحمة الله عليه عقد باباً خاصاً بعنوان: باب تفسـير التوحيد وشـهادة أن لا إله إلا اللـه، وأراد رحمه الله تعـالى من هـذا الباب أن يبين لنا أن دعوة التوحيد التي دعا إليها متبعـاً في ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ والأنبيـاء جميعـاً من قبل؛ إنما هي دعوة إلى ما تضمنه القرآن الكـريم من بيـان التوحيد، وحقيقته، وبيان ما يضاده وهو الشرك.

فمعنى أن لا إله إلا الله، ومعنى التوحيد الـذي هو ديننا -

ولله الحمد- نأخذه من كتـاب الله ومن سـنة رسـوله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بذلك يريد أن يـرد على الـذين غـيروا مفهـــوم لا إله إلا الله ومعـــنى التوحيد وحقيقة الشــرك، فجعلوا الناس يقعون ويتلبسون بالشرك الأكبر وهم يقولون لهم مع ذلـك: إنكم موحـدون، ولم تنقضـوا توحيـدكم، وإن الشرك حالة وصفة أخرى.

والإمام رحمه الله ذكر أربع آيـات من كتـاب الله تعـالى، وهي تبين لنا معنى لا إله إلا الله وحقيقة التوحيد.

قال المصنف رحمه الله: ' باب تفسـير التوحيد وشـهادة أن لا إله إلا اللــه، وقــول اللهِ تعـالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ يَبْتَغُــونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِــيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْـرَبُ وَيَرْجُــونَ رَحْمَتَــهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً [الإسـراء:57] وقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّا تَعْبُـدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَـيَهْدِين * وَجَعَلَهَا كَلِمَـةً بَاقِيَـةً فِي عَقِبِـهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ [الزخـرف:26-28] وقولـه: اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبـة:31] وقولـه: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِــذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْــدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ [البقرة:165] '

تفسـير قوله تعـالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ يَبْتَغُـونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ)

أقول: هـذه هي الآيـات، ونشـرع الآن في تفسـير وبيـان الآية الأولى، وبيان دلالتها على معنى لا إله إلا الله.

يقول الله تبارك وتعالى قبلهـا: قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْـوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَـهُ وَيَخَــافُونَ عَذَابَــهُ إِنَّ عَــذَابَ رَبِّكَ كَــانَ مَحْــذُوراً [الإسراء:56-57].

فيوضح الله في هذه الآية معنىً عظيماً جـداً، ويـرد رداً جامعاً مانعاً على الذين عبدوا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أي معبـود كـان، وكما تعلمـون أن أعظم من عبد من دون الله هم الصالحون: إما الملائكة أو الأنبيـاء أو من دونهم من الصالحين من عباد الله الأتقياء ممن يسـمون أوليـاء، وهـذا أكثر شرك وأول شرك وقع في بني آدم.

فإن الله خلق بني آدم جميعاً على التوحيـد: كَـانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ [البقـرة: 213] وقد فسرها علماء التفسـير ومنهم ابن عبـاس رضي الله عنه وبعض تلاميذه، قال: [[كان الناس أمة واحدة على التوحيد فأشركوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين]].

وقـال ابن عبـاس رضي الله عنـه: [[كـان بين آدم وبين نـوح عشـرة قـرون كلها على التوحيد]] وفي الحـديث الصـحيح حـديث عيـاض بن حمـار رضي الله عنـه: {وإني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين }.

فالأصل في الإنسانية جميعـاً هو التوحيـد، وقد خلق الله تعـالى آدم على التوحيـد، فهو نـبي مـؤمن موحـد، وبقيت ذريته عشـرة قـرون على التوحيـد، والأصل أيضـاً في كل إنسان أنه يولد على التوحيد: {كل مولود يولد على الفطرة } حتى وإن ولد في أمريكا أو الصين أو الهند بين البـوذيين، أو اليهود أو النصارى، يقـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: {كل مولـود يولد على الفطـرة } وفي بعض الروايـات، قـال: {على هذه الملة } أي: على الإسلام: {فـأبواه يهودانه أو ينصـــرانه أو يمجســـانه } ولم يقل في أي رواية من الروايات: أو يمسلمانه أبداً، لأنه مولود على الفطرة.

والفطـرة هي الإسـلام، وإنما يكـون التغيـير والتبـديل بصرفه عن الفطرة، قال: {كما تنتج البهيمة البهيمة جمعـاء هل تـرون فيها من جـدعاء } فعنـدما تلد البهيمة بهيمـة، تلدها كاملة سوية الخلقة، ولكن الـذي يجـذعها ويقطع أذنها

أو يشــقها بعلامة معينة هم النــاس، فلا تُولد بهيمة مجذوعة مشقوقه بعلامة معينة كما كان يفعل الجاهليون.

وكذلك النـاس لا يولد أحد مشـرك أبـداً، وإنما يولد على هذه الملة، ويولد على الفطرة والتوحيد.

فيأتي الذين كتب الله عليهم الشقاوة والشرك، والأبوان هم أهم شـيء في ذلـك، لكن قد يكـون غـير الأبـوين، مثل المجتمع أو دعاة الضلال، فالتربية هي الـتي تحـرف الطفل وتصـرفه وتجرفه عن التوحيد إلى الشـرك، ولـذلك كـان ما بين آدم وبين نوح على التوحيد، حتى وقع الشرك في قــوم نوح.

أول شرك وقع في الأرض

وقد وقع الشرك في قوم نوح بعبادة وتعظيم الصــالحين والعباد: وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَـذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُـوَاعاً وَلا يَغُــوثَ وَيَعُــوقَ وَنَسْــراً [نــوح:23] فهــذه أســماء رجــال صالحين، كـانوا عبـاداً يعبـدون الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، وكـان الناس يحبونهم ويقدرونهم ويعظمـونهم لما يـرون فيهم من شـدة الاجتهـاد في العبـادة، فلما مـاتوا جـاءهم الشـيطان، وقال: لو صـورتموهم حـتى تـذكروهم، فـإذا تـذكرتم هـؤلاء الصالحين الأخيار عبدتم الله كعبادتهم.

وانظـروا كيف المـدخل الخـبيث لعـدو اللـه، فصـوروهم ونحتوا الأصـنام على صـورهم، وبقـوا على هـذا زمنـاً حـتى نسخ العلم، ودائمــاً يــأتي جيل فــيزين له الشــيطان ما لم يــزين للأول، فجــاء الشــيطان للأجيــال المتــأخرة، فقــال: اعبدوهم وادعـوهم، فهـؤلاء واسـطة ووسـيلة وشـفعاء عند الله، وهؤلاء قوم مقربون عند الله، وإذا عبدتموهم قربـوكم إلى الله، وأنتم مـذنبون مسـاكين وضـعفاء وعنـدكم ذنـوب وخطايا، أما هؤلاء فإنهم عبدوا الله، وبلغوا مـراتب العبودية العليـــا، ولهم عند الله شـــأن وجـــاه، فـــإذا دعـــوتم الله بواسطتهم، أو دعوتموهم هم فإنهم يكونوا شـفعاء لكم عند

الله.

فعبـدوهم من دون الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، وأصـبحوا آلهة معبودة من دون الله.

فهذا هو أصل الشرك في العالم.

ثم جاء من بعدهم من عبد الأنبيـاء، وقـلَّ أن يُعلم مكـان فيه قبر نـبي إلا ويـأتي إليه النـاس فيعبدونه من دون اللـه، ونحن في هـــذه البلاد -بحمد للـــه- قد حماها الله بـــدعوة الشيخ الإمام المجدد من هذا الشـرك، ولو أن فيها من يريد أن يحيي الوثنيـة، ولكنهم مخـذولون بـإذن اللـه، ولن تقـوم لهم راية ولا شـأن ولا كلمـة، لكن في غـير هـذه البلد تجد العجب العجاب من عبادة القبور والأولياء، لا يكـاد يوجد بلد إلا وفيه قبر النـبي فلان، أو الـولي فلان، أو السـيد فلان، أو السيدة فلانة، وهذا في أكثر أنحاء العالم الإسلامي إلا القلة القليلة التي فيها من يـدعو إلى اللـه، وهـؤلاء ينـبزون بأشد الألقاب، ويقال: إنهم خارجون على المذاهب، وإنهم خـوارج ووهابية ، ويسبونهم بأشنع السب لأنهم يوحدون الله.

أما الكثرة الكافرة فهم يعبدون الأوليـاء، ويعبـدون قبـور الصـالحين، وقد لا يكونـون من الصـالحين، بل قد لا يكـون هناك قبور أصلاً أو مقبورون، فبعضها أُحـدث على أنه قـبر، وهو ليس بقـــبر في الحقيقـــة، لأنه إذا لم يكن فيه ميت فليس بقبر.

فالمقصـود أن هـذا الشـرك العظيم هوشـرك الجاهلية الأولى، وهو كـذلك الشـرك الـذي ما يـزال إلى هـذا اليـوم، وهو أعظم وأظهر أنواع الشرك.

الأدلة على فساد شرك الدعاء

فشـرك العبـادة ودعـاء غـير الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى من

الشـرك الأكـبر، والإمـام رحمه الله في هـذه الآيـة، أراد أن يبين لنا كيف نتجنب هذا الشرك، وكيف رد الله على هـؤلاء المشركين، فقال تعالى: قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِـهِ فَلا يَمْلِكُـونَ كَشْـفَ الضُّـرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْـوِيلاً [الإسـراء:56] ومعـنى الآيـة: ادعـوا كل من تزعمـون أنه إله من دون الله أن يكشف عنكم الضر وأن يحوله إلى غيركم فلن يسـتطيع كائناً من كان!

فهؤلاء الأموات -وأفضل من في الأموات الأنبيـاء- كـانوا يدعون الله، ويتضرعون إلى اللـه، وكـانوا فقـراء إلى اللـه، وكانوا محتاجين إلى الله، وكـانوا لا يملكـون نفعـاً ولا ضـراً لأنفســـهم ولا لأحد من الخلق إلا ما شـــاء اللـــه، فكيف يعبدون؟!

وكيف يــدعون من دون الله وهم لا يملكــون شــيئاً من ذلك؟!

ثم جاءت الحجة الدامغة، والبرهان القاطع، فقال: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ [الإسراء:57] أولئك الـذين يـدعون، وفي قراءة: أولئك الذين تدعون، والمعـنى واحد لا يختلـف، وهو: أن المدعوين المعبودين من دون الله سواءً كـانوا من الملائكة أو الأنبياء أو أي عبد صالح عبد من دون الله، أومن الجن ألـذين أسـلموا -كما فسـرها بعض السـلف : [[أنهم كانوا يعبدون الجن، فأسلم الجن وبقي العباد يعبـدونهم]] يقـول الله تعـالىفيهم: أنهم أنفسـهم يتقربـون إلى اللـه، ويبتغون إليه الوسيلة، فهم أنفسهم يعبـدون اللـه، ويـدعون الله وحـده لا شـريك لـه، وهم أنفسـهم يريـدون أن يكـون بينهم وبين الله محبة وصلة وقربة، وأن ينالوا عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى الـدرجات العليـا، ويفـوزوا برضـاه، وهم أنفسـهم يخـــافون من اللـــه، ومن عذابه وعقابـــه، وهم أنفســـهم يطمعون في رحمة الله، ويرجون ما عنده.

إذاً إذا كان هذا هو حـال المعبـودين، فكيف يُعبـدون من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

فكل الشـرك الموجـود -الآن- في العـالم وفي القـديم والحديث، يقال: أنه توسـل، وينكـرون أنه شـرك، والتوسل فيه خلاف عندهم، بعضهم يقول: لا بأس به، وبعضهم يقول: إنه واجب، فيجعلـون الشـرك كله من التوسـل، وهـذه الآية ترد عليهم، كما يرد عليهم قوله تبارك وتعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ [المائدة:35].

إذاً نحتاج أن نعرف ما هي الوسيلة؟

17 - التوسل

التوسل إلى الشيء معناه: التوصل إليـه، والوسـيلة إلى الله معناها: ما نتوصل به إلى الله، وما نتقرب به إليــه، وما نــتزلف به إليه سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى ليقربنا منــه، ويوصــلنا إلى مرضاته.

فهذه هي الوسيلة.

فإذاً نحتاج أن نعرف ما هي الوسـيلة؟ وما هو التوسـل؟ وما هي أنواع التوسل؟ وما هي أحكامه؟

أعظم الوسائل إلى الله

فأما الوسيلة:

فـأعظم وسـيلة هي الإسـلام والتوحيـد، وبـذلك فسـرها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم، ولا يكون العبد مسـلماً إلا إذا وحد الله، وهذا ضد ما يفعلونه تماماً.

فـأعظم شـيء نتوسل به إلى الله هو توحيـده سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، ولـذلك إذا أردنا أن نسـأل الله فـإن من خـير ما نسأله به؛ أن نسأله ونتضرع إليه بأنا نشهد أن لا إله إلا هو،

فنتوسل إليه بتوحيده، ودعاؤنا لربنا وتوسلنا له في الدعاء بالتوحيد دليل على أن أعظم الأعمال التي نتوسل بها هو التوحيد، لأن الدعاء منه دعاء عبادة، ومنه دعاء مسألة.

فدعاء العبادة مثل الصلاة والشهادة: فالصلاة دعاء، وشهادة أن لا إله إلا الله دعاء.

ودعاء المسألة هوالتضرع والسؤال، وهو أن تسأل ربك شيئاً، فإذا كان خير ما تسأل ربك به هو توحيد الله، فإذاً خير ما نتوسل به إلى الله أيضاً من الأعمال والعبادات والطاعات هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلو أن أحداً أراد أن يتقرب إلى الله بالشرك وبعبادة غير الله فهذا لا يكون متوسلاً إلى الله، بل يكون مطروداً من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) [المائدة:72] ولا يكون هذا متوسلاً إلى الله وهو متباغض إلى الله، بفعل أكبر وأعظم ذنب عصي الله تبارك وتعالى به: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء:48] فلا يمكن أبداً أن يكون أعظم الذنوب هو ما نتوسل به إلى المحبوب والمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذاً أعظم ما نتوسل به إلى الله هو توحيد الله تبارك وتعالى، والانقياد والإذعان والطاعة له، وهؤلاء العباد الصالحون من الأنبياء والملائكة إنما عظمت منزلتهم وقيمتهم وكانوا أولياء؛ بتوحيدهم لله.

فلذلك نحن نتوسل إلى الله بأعظم الوسائل وهو التوحيد، والوسيلة التي أمر الله أن نتخذها إليه أعظم شيء فيها هو توحيده، ثم طاعته، بجميع أنواع الطاعات، وأولها الصلاة، فكل ما فرضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه } فكل العبادات والفرائض نتقرب بها إلى الله، فهذا هو

معنى التوسل.

فأتوسل إلى الله معناها: أتقرب إليه وأسعى لنيل رضاه بهذه العبادة: بدعائه، وذكره، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة دينه، وبكل شيء يرضيه، فأنا بهذا التوسل أسعى إلى رضاه سبحانه وأطمع في رحمته، وأن أنال الفوز بجنته وأن يعافيني من ناره.

وهكذا كل عبد من عباد الله الصالحين، وهذا هو التوسل المشروع، وهو دين الإسلام كله.

أما جانب الدعاء منه، فندعو الله تبارك وتعالى دعاء المسألة، وندعو الله دعاءً مشروعاً، ونتوسل إليه توسلاً مشروعاً بأحد أمرين:

أنواع التوسل المشروع

الأمر الأول: بأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، يقول الله تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: 180] فندعو الله بأسمائه فنقول: يا غفار اغفر لي، يا رحيم يا رحمن ارحمني، يا كريم ارزقني، أو تفضل علي.

فأيُّ اسم من أسماء الله تدعو الله تعالى به، وتتوسل إليه، وتسأل الله به، فهو خير وأفضل أنواع الدعاء.

فندعو الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وندعوه ونتضرع ونتوسل إليه، بتحقيقنا التوحيد والإيمان.

الأمر الثاني: أن نتوسل إلى الله بأعمالنا الصالحة، فندعو الله بأعمالنا التي عملناها خالصة لوجه الله، والتي تقربنا بها إليه، وأعظم وأفضل هذه الأعمال هو الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلما سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله }.

والإيمان -الذي هو التوحيد- نتوسل به إلى الله: رَبَّنَا إِنَّنَا

سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ [آل عمران: 193] فأولو الألباب الذين أثنى الله تعالى عليهم وذكر أنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم -وهذا هو غاية الذكر وغاية العبادة- يتوسلون إلى الله بالإيمان، ولم يتوسلوا إليه بذات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل سألوه بالإيمان به.

ومن أعظم الأدلة على ذلك، وأوضحها أيضاً، { قصة الثلاثة الذين آواهم المطر إلى كهف فأطبقت عليهم الصخرة } فتوسلوا إلى الله تبارك وتعالى بأعمالهم الصالحة الخالصة.

أفلم يكن عندهم أنبياء حتى يتوسلوا بهم؟

إن هؤلاء مؤمنون لا شك في ذلك، وجاءهم الإيمان عن طريق الرسل والأنبياء الذين دلوهم على الإيمان، لأنهم أناس عاديون، ليسوا برسل أو أنبياء، ولا مشهود لهم بالصلاح والتقوى، فهم أناس من عامة الناس.

لكن الله أراد أن يبتليهم بهذه الصخرة، فلم يتوسلوا بالذوات وبالمخلوقين، ولكنهم توسلوا إلى الله، وقبل الله توسلهم بأعمالهم الصالحة التي عملوها خالصة لوجه الله.

فتوسل الأول إلى الله ببر الوالدين، وبر الوالدين نعم العمل الصالح: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً [الإسراء:23] فجعل الله تبارك وتعالى أعظم حق بعد حقه تعالى -وهو توحيده- هو حق الوالدين, فكذلك أعظم ذنب بعد الشرك بالله هو عقوق الوالدين، وعندما سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {أيُّ الذنب أعظم؟ قال: الشرك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين } فهذا أعظم حق يراعى، وإن أهدر فهو أعظم حق أهدر بعد حق الله.

فتوسل إلى الله ببر الوالدين، وتضرع إلى اللـه: { اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغـاء وجهك وخالصـاً لوجهك الكـريم فافرج عنا ما نحن فيه، ففرجت قليلاً }

وتوسل الثـاني وتضـرع إلى الله بالعفة عن الزنـا، لأنه كـان له ابنة عم ذات منصب وجمـال، وكـان يريـدها على الفاحشة، ولكنها امتنعت منه، حـتى جـاءت واحتـاجت إليـه، فأعطاها الـدنانير، وقعد منها مقعد الرجل من أهله فذكرته بالله، فاتقى الله، وتركها لوجه الله.

وهذا العمل لا يضيع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فـذرة من العمل لا تضيع، إن كان خيراً وجده.

وإن كان شراً وجده، فهـذه العفة عما حـرم اللـه، وهـذا العزوف عما نهى الله تبارك وتعالى عنه، وحجز النفس عن الشهوات المحرمة، نفعه في وقت هو أحـوج ما يكـون إلى المنفعة، فسأل اللـه: { يا رب! إن كنت فعلت ذلك خالصـاً لوجهك الكريم؛ فـافرج عنا ما نحن فيـه، ففـرجت قليلاً } أكثر من الأول، غير أنهم لا يستطيعون الخروج.

وهـذا الحـديث عظيم، ويحتـاج إلى درس بل دروس بالنسبة لما فيه من الآيات والعبر: بالنسـبة لحـقّ الوالـدين، ثم بالنسبة لترك ما حرم الله تبـارك وتعـالى، وأثر ذلك في الخير والنعمة والبركة. ثم يأتي النوع الثالث.

فالرجل الثالث توسل إلى الله بأداء حقوق الناس.

فإيفاء النـاس حقهم، ورحمة الخلق والإحسـان إلى خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الأعمال الصالحة العظيمة.

وقد كان عند هذا الرجل أجـير، فـذهب ولم يأخذ أجرتـه، فنمى ماله حتى أصـبح شـعاباً من الإبل والبقر والغنم، فلما

جاء صاحب المال، يريد أن يأخذ ماله، قال لـه: هـذا مالـك، فقـال: أتهـزأ بي يا عبد الله -فهو يعـرف أنه اشـتغل عنـده مدة من الزمن، وأن ماله عنـده بضع دنـانير، وهـذه شـعاب من بهيمة الأنعام، وهي أفضل الأموال وأزكاها- فقال له: لا. ولكن هذا مالك، وحقك. فهو فعل ذلك لوجه الله.

فيا من تأكلون حقـوق العمـال الأجـراء والعبـاد! انظـروا كيف نفعه هذا في وقت هو أحـوج ما يكـون إليـه، وذلك لما وفاه أجـره وأعطـاه حقـه, وبالإحسـان إليه زيـادة عن حقه لوجه الله، وما كان ذلك الرجل يريـده ولا يطلبه أو يتوقعـه، قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الـرحمن:60] فمن أحسن إلى خلق الله ابتغاء وجه الله أحسن الله تبارك وتعالى إليه في الدنيا والآخرة.

ففـرجت عنهم الصـخرة وخرجـوا، وهـذا من فضل الله ونعمته تبارك وتعالى عليهم.

فالشاهد أنهم دعوا الله وتضرعوا وتوسـلوا إليه بأعمـال صالحة فعلوها.

فإذا أردنا أن نبتغي إلى الله الوسيلة، فـالواجب علينا أن نعمل أعمالاً صالحة خالصةً لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا جاء وقت الشدة والضيق والكرب في الـدنيا أو في الآخرة، نضرع إلى الله بهـذه الأعمـال الصـالحة، فـإن قبلها الله نفعنا ذلك عنده.

فإذا أردنا أن يكون عنـدنا ذخـائر وعـدة وسـلاح نواجه به الأزمات والمخاطر والهموم والمشـاكل -وهـذه لا يخلو منها أحد- فلنعد عملاً خالصاً لوجه الله، ولو أن تذكر الله تعـالى وحدك ولا يعلم بك إلا الله.

ادع لأخيك بظهر الغيب وهو لا يعلم ولا يعرفك أو يلقك

أو يرك.

أصلح بين الناس لوجه الله تبارك وتعالى.

أو اعمل أي معروف، ففي كل ذات كبد رطبة أجر، حتى ولو كـان إلى البهـائم، أحسن إليها وهي لا تشـكر، ولا تمنه عليها.

وســوف تجد أن ذلك ينفعك بـإذن اللـه، فـترفع يـديك وتســأل الله في وقت أزمة أو شــدة، كما ســألوه هــؤلاء الثلاثة، فيفرج الله تبـارك وتعـالى عنك الغم، ويكشف عنك الكرب بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما دعـاء غـيره: فَلا يَمْلِكُـونَ كَشْــفَ الضُّــرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْــوِيلاً [الإســراء:56] وهم عبــاد أمثالنا.

فكل من عُبد من دون الله -من هـــــؤلاء المســـــمين بالصالحين أوالأولياء أو السـادة- لا يملكـون لأنفسـهم ضـراً ولا نفعاً.

فالتوسل المشروع المحمود يكون بالـدعاء: بـأن نـدعوه بأســمائه الحســنى، أو بأعمــال صــالحة نعملهــا، ورأســها وأفضلها هو توحيد الله والإيمان به.

ثم كما قدمنا وفي هـذا الحـديث -مثلاً- ما يتعلق بحقـوق الوالدين وبر الوالدين، وما يتعلق بالكف عن محارم الله مع القدرة عليها، وما يتعلق بإعطاء الناس حقـوقهم والإحسـان إليهم مع إمكان عدم ذلك.

فهذه وغيرها من الأعمـال الصـالحة هي الـتي يكـون بها التوسل المشروع، وهي الوسيلة الصحيحة المحمودة، فهذا هو النوع الأول.

التوسل الشركي

والنوع الثاني من أنواع الوسيلة: هي الوسيلة الشركية.

فالتوسل الشركي الذي يكـون صـاحبه مشـركاً بالله هو أن يتوسل الإنسان إلى الله -بزعمه وفي نظره- بـدعاء أحد من المخلوقين، ويعبـده كما كـان الجـاهليون يقولـون، ففي الآيـة: مَا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمـر:3] أي ما نعبدهم إلا ليكونوا شفعاء لنا عند الله بما لهم من الجــاه والقيمة والمنزلة عند الله.

فدعوا غير الله، وعبـدوا غـيره، زاعمين أنه يقـربهم إلى الله، فكان المشركون إذا حجوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

فالمشـركون لم يكونـوا يعتقـدون أن الآلهة المعبـودات التي يعبدونها من دون الله أنها تملك الأشــياء، أو أنها تخلق أو تـــرزق أبــــداً: وَلَئِنْ سَــــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُــــولُنَّ اللَّهُ [الزخــرف:87]. وقــال تعــالى: وَلَئِنْ سَــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان:25]. وقال تعـالى: لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [الزخرف:9] فكانوا يعتقـدون أن الخـالق والـرازق والمحـيي والمميت والـذي يـدبر الأمر ويــنزل الغيث هو الله وحــده، لكن هــذه تقــرب إلى اللــه، وتشـفع عنـده، ولا تملك شـيئاً إلا شـريكاً هو لك تملكه وما ملك.

إذاً فمــادام الله يملكه وما ملــك، فلمــاذا لا تــدعو الله وحده؟!

جـاءهم الشـيطان بشـبهة، وهي الـتي يقولها إلى اليـوم عبــاد الأصــنام والقبــور، يقولــون: أنت ضــعيف ومــذنب ومسكين، فكيف تدعو الله مباشرة؟!

ادع الله عن طريق هــؤلاء الصــالحين؛ لأن لهم جاهــاً

ومنزلة وقيمة عظيمــة، أما أنت فليس لك قيمة عند اللــه، فكيف تدعو الله؟!

ولكن هـذا ليس مما شـرعه اللـه: وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غافر:60] وقال تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ [النمـل:62] فالله لم يقل أنه يجيب المـؤمن إذا دعاه، نعم إن أعظم من يسـتجيب لهم هم المؤمنـون، لكنه قـال: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ أو ليس الله هو الـذي يغيث الكــافرين إذا ركبــوا البحر وجــاءهم المــوج من كل مكــان، فــإنهم يــدعون الله مخلصــين له الــدين، فينجيهم ولكن: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَـرِّ إِذَا هُمْ يُشْـرِكُونَ [العنكبـوت: 65].

إذاً الله تعـالى يغيث المضـطر، ويسـتجيب له ولو كـان كافراً، وبعض الناس قد تخفى عليه هـذه الحقيقـة، فيقـول: كيف استجاب له؟!

فالاسـتجابة موجـودة، وكثـير من الكفـار إلى هـذا اليـوم يذكر أنه وقع في أزمة كحادث طائرة، أو في حادث سفينة، فيقول: تضرعت، ودعوت الخالق فأنجاني، وهـذا في كتـاب الله.

فالله تبارك وتعـالى هو الـذي يغيث؛ لأنه إذا لم يغثه الله فمن يغيثـه، فلا أحد يملك لأحد شـيئاً، فـإذا تضـرع إلى الله أغاثه الله ولو كـان كـافراً، لكن مشـكلته أنه إذا خـرج ونجا نسي ما كان يدعو من قبل، وعاد إلى دينه الأول.

فالمضطر والمظلوم وإن كـان كـافراً يسـتجاب لـه؛ لأنه سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى لا يجيب المضــطرين إلا هــو، ولا يغيث المظلومين والملهـوفين إلا هـو، فلو لم يغثهم فكيف تكـون الحياة، ومن الذي يتولى ذلك؟

فــإذا كــان يغيث الكــافر إذا دعــاه، فما ظنك بالموحد

المذنب؟

فمن خير ما يفعله المذنبون والمجرمون والعصاة أن يطرقوا باب الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [الشورى:25] وقال: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ [غافر:3] فهذا شأنه سبحانه، فهو يريد العباد أن يتوبوا، ويدعوهم ليتوبوا: تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً [التحريم:8] {يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل } فالله يدعو الخاطئين والمذنبين والمجرمين ليدعوه فيتوب عليهم، وأن يستغفروه فيغفر لهم، وأن يقبلوا عليه فيقبل عليهم سبحانه.

فجاء هؤلاء المشركون دعاة الضلالة ليحرمونا من هذه المعاني، وجعلوها محصورة في الشرك الذي لا يقبله الله، بل هو مردود على صاحبه.

والتوسل الذي جعله الله تبارك وتعالى باباً عظيماً من أبواب الخير، وهو أنفع الأبواب، ضيقوه جداً وما جعلوه إلا بشيء واحد، وفيه بدعة إن لم يكن فيه شرك، وهو ذوات الأنبياء وذوات الصالحين، فلذلك نقول هذه شبهة داحضة، وما دام أولئك المدعوون المعبودون يدعون الله فنحن أيضاً ندعو الله، وإن كان فينا من الذنوب ما فينا، لكن هو المدعو وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ندعوه ونتضرع إليه، ولن يرد من دعاه، ولن يحرم من سأله أبداً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والدعاء أمره عظيم وشأنه جليل، وحسبنا أن نقول: إن دعاء غير الله هو الشرك الأكبر، فإذا قال: يا بدوي ! أو يا حسين ! أو يا عباس ! كائناً من كان؛ فهذا مشرك الشرك الأكبر، إذا كان دعا غير الله معتقداً أنه يستجيب له، ولو قال: لا أنا لا أقصد أنه إليه، بل أنا أقصد فقط التقرب إلى الله بدعائه، فهذا ما قاله المشركون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا

إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3] فهذه شبهة المشركين الأولين.

إذاً نحن ندعو الله، ولو أن هـؤلاء النـاس الـذين يعبـدون غير الله تأملوا حال المدعوين؛ لكانوا كما قال الله في الآية السابقة التي دحض بها كل شبهة.

من أشكال التوسل الشركي في العالم

وأكـثر ما يقع الشـرك اليـوم في الأرض من الـروافض الـذين يعبـدون الحسـين بن علي رضي الله عنهمـا، وعن أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ أجمعين، فيتعلقـون به أشد من تعلقهم باللـــه، فيجتمعـــون وينوحـــون ويبكـــون ويقرءون القصائد والمراثي الطويلـة، والسـبب في بكـائهم أن في هذه القصائد والأشـعار أنه مـات ضـعيفاً وحيـداً في الصـحراء، وأنه مـات عطشـاناً، وأن أعـداءه تكـالبوا عليه وقتلوا ابنه.

وهم يزيدون من عنـدهم أشـياء وتفاصـيل، وكلما ذكـروا شـيئاً منها يـزدادون في البكـاء، فـإذا انتهـوا من العويل والنياحة، قالوا: ندعو الحسـين ، سـبحان اللـه! هو لم يملك لنفسه شيئاً، وهو في تلك الحالة وفي ذلك الكرب في يـوم كربلاء ، ففي ذلك الموقف، لم يملك لنفسه نفعاً ولا ضـراً، فقتله أولئك القـــوم ولم يســـتطع أن يفعل لنفسه شـــيئاً، فكيف تعبدونه من دون الله؟!

وهم أيضـاً يعبـدون عليـاً رضي الله عنـه، وهو الـذي كم أصابه من مشكلات ومواقف في يـوم صـفين وفي غيرهـا! ثم خـرجت عليه الخـوارج ، وانقسـمت عليه الأمـة، وفقد بعض الأقاليم من ولايته، وتعب تعباً شـديداً، ولم يكن يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، حـتى جـاءه الشـقي عبد الـرحمن بن ملجم ، فضربه بالسيف على هامتـه، فمـات رضي الله عنه بعد أيام من ضربة هذا الشقي.

فأين نفعه لنفسه؟! وأين كشف الضر عن نفسه، حتى يملك لكم كشف الضر وتحويله عنكم؟! ومع ذلك يدعونه من دون الله!!

فإذا ذهبت إلى بعض البلاد -مثلاً مصر - فإنك ترى شيئاً عجيباً جداً، فإنك تجدهم يقولون: رأس الحسين مدفون هاهنا، فيقولون رأس الحسين ولا يقولون الحسين كله، وهذا بغض النظر عن أنه كيف يعبد في كربلاء ، ويعبد في العراق في النجف ، ويعبد في دمشق ، ويقال: أنه مدفون هناك، ويعبد في مصر ويقال: هنا رأس الحسين ، مع أن هذا الضريح لم يبن إلا بعد ثلاثمائة سنة من وفاته.

ثم أنك تجد هناك شيئاً عجيباً من الزحام والدعاء والتضرع حول ما يدعون أنه قبر رأس الحسين .

فإذا كان هذا رأسه الذي فصل عن جسده -وهذا غير حقيقة ولكن تنزلاً، إذا افترض أن هذا الرأس قطع- وجيء به من كربلاء في العراق ودفن في مصر ، فهل هذا مبرر أو موجب لعبادته ودعائه من دون الله، أو هو دليل على فقره وعجزه وضعفه، حيث يقطع رأسه وحمل إلى هذه البلاد، ولم يستطع أن يدفع عن نفسه أي شيء؟!

لكن ليس للمشركين عقول، وإنما أمرهم أحد أمرين:

1- إما جهلة مقلدون: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف:23] فلا يوجد أقل تفكير، بل تقليد أعمى.

2- وإما محتالون ولصوص ومجرمون يأكلون السحت، فيأتي عند القبر ويقول: ماذا تريد من الحسين ؟ هل تريد الزوجة؟ إو إذا كانت فتاة، هل تريدين زوجاً أو خطيباً؟ والذي يريد المال موجود... وهكذا.

فتـــدفع للســـدنة عند الضــريح مبلغـــاً من المـــال، وهم يسمحون لطـالب الحاجة أن يـدعو، والمهم أن تـدفع شـيئاً للسيد -للبـدوي أو للحسـين أو لــنفيسة ، أو غـيرهم- وهـذا النـذر لا يأخـذه صـاحب القـبر، وأحيانـاً لا يوجد قـبر أصـلاً، كالقبر المزعوم أنه للحسين وهو لا يوجد أصلاً فيه شيء.

فالـــذي يأخذ المـــال هم الســـدنة، فهم يضـــحكون على عقول الناس، ويجمعون هذه الأموال ويستفيدون منها.

ولذلك من القصص العجيبة جداً: أنه يوجد ضـريح ضـخم في أحد البلاد، يسمونه ضـريح الخواجـة، وهـذا القـبر لرجل هولنــدي -وكما تعرفــون أن أي رجل أوروبي يســميه بعض الناس خواجة- وكان قد جاء في قنـاة السـويس عـاملاً في الشــركة الــتي جـاءت لتحفر القنـاة، فسـقط في البحـيرة فغـرق فيهـا، ثم طفت الجثة على سـطح المـاء، فسـحبوا الجثة وحفروا لها ودفنوها، ثم بنوا عليها ضريحاً.

فهذا نصراني كافر وإلى الآن يدعونـه، ويسـمونه ضـريح الخواجة.

وأشد من هـــذا ما يحكى -ويقـــال أنه متـــواتر وأنه حصل أكـــثر من مـــرة-: أن بعض اللصـــوص المجـــرمين ذهبـــوا يقطعون الطريق، ويحتالون على النـاس، فما وجـدوا شـيئاً يحتالون به على الناس، وكانوا رجلين ومعهم حمار، فذبحوا الحمار ودفنوه، وبنوا عليه قبة، وجلسوا على الطريق، ومن مرّ من عندهم قالوا له: هذا ضريح الشيخ فلان، ومع المـدة كثر الناس الزائرون للضريح، وكثرت الأموال والنذور.

فبدل أن كانوا يريدون أن ينهبوا الناس؛ أصبح الناس هم الذين يعطونهم طواعية للشيخ وللولي.

حتى جاء يوم من الأيـام فاختلفـا، فقـال أحـدهما للآخـر: احلف بالله أنك ما غششـــــتني، فقـــــال: والله العظيم لم

أغشـك، فقـال لـه: لا. لا أقبل إلا بواسـطة الـولي -والعيـاذ بالله، فمن شركهم بالله لا يقبلون الحلف بالله، وهذا شيء معروف الآن، فإذا حلفت بالله فقد يقبل وقد لا يقبــل، لكن إذا حلفت بالشــيخ فإنه مباشــرة يصــدق، مثلاً الشــيخ عبد القـــادر الجيلاني كـــان في الهند أو في أفريقيا ، أو في أي بلاد إذا حلف بحياة الشيخ فإنه يصـدق مباشـرة- فلما حلف له على حياة الشـيخ أنه لم يغشه قـال: تحلف ونحن دفنـاه سوياً! أي: نحن الاثنين نعرف من هو المدفون.

فيظهر من ذلك أنه حــتى الــذين دفنــوه صــدقوا؛ لأن الكذب إذا كثر وانتشر وجبل عليه النـاس فـإنهم يصـدقونه، وهذه قضـية نفسـية، وقد قيـل: إن أشـعب الطمـاع مـرّ به أطفـــال، فقـــالوا: يا أشـــعب ! يا طمـــاع! وآذوه وهو في الطريــق، فقـال: اذهبـوا إلى بيت آل فلان فـإن فيه وليمة كبيرة، فالأطفال قالوا: هذا أشعب وأكيد أنه يعـرف الـولائم فصــدقوه وذهبـوا، ثم بعد قليل فكّـر، ثم تبعهم، فقيل لـه: لمـاذا تبعتهم؟ قـال: يمكن يكـون صـحيح. وهـذا يقع أحيانـاً، وهو الذي قال لهم هذه الكذبة.

فكـذلك بعض النـاس يكـون هو أول من يبتـدع الشـرك، وأول من يحدثــه، ثم يصــدق ذلــك، وهــذه تســمى الحيل النفسية.

فكثـــير من النـــاس يحتـــال، فيقـــول للنـــاس: أنا فعلت وأعطيت وعنـدي، وهو كـاذب، ثم ينقل النـاس هـذا الكلام عنه، وبعد فترة يأتيه الشيطان فيصدق أنه كذلك، وهو الذي يكون ابتدعها من عنده.

وهذا حتى تعلموا مكر هؤلاء المكارين.

فهـؤلاء شـياطين الإنس والجن، يضـحكون على النـاس حـــتى أصـــبح الإنســـان العاقل اللـــبيب، أو من يبحث عن الإسلام لو جاء إلى بلاد المسلمين، كما هو الحـال في كثـير

من الأوروبيين الآن والأمريكيين -كثير منهم حيارى ضائعين، وتائهين يبحثـون عن دين- إذا جـاء إلى بلاد المسـلمين يريد الإسلام، فيقـال لـه: هـذا هو الإسـلام، فيجد عبـادة القبـور، ودعـــاء المـــوتى، والاســـتغاثة بهم، وهم عنـــدهم عبـــادة القديسين والمسيح في دينهم المحرف.

فيقول: هذا الذي هـربت منـه، واعتقـدت أنه خرافـة، ثم أجده عند المسلمين، فلا يؤمن أيضاً.

فهـــذا شـــرك، وفيه أيضـــاً صد عن ســـبيل الله تبـــارك وتعـالى، فهـذا هو التوسل الشـركي، وهو يملأ الأرض إلا ما رحم الله تبارك وتعالى.

وهم يريـدون أن يحيـوه حـتى في هـذه البلاد الطـاهرة، فيقولـــون: لمـــاذا لا تُبـــنى القبـــور وتعظم؟ وهـــذا ليس من الشـرك، وأنتم تكفـرون النـاس، وهـذا يقـول لا إله إلا الله فكيف تقول: أنه مشرك.

فنقـــول: إذا قـــال لا إله إلا الله ونقضـــها، مثلما إذا توضأ ونقض وضـوءه، أو صـلى وأبطل صـلاته، وكما تـرون تبـدأ البدع شيئاً فشيئاً.

ولـذلك ما يفعل عند قـبر رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـــلَّمَ من اســـتقبال النـــاس للقـــبر واســـتدبارهم للقبلة ليدعون، فهذا وإن دعوا الله تبارك وتعـالى فهو من وسـائل الشـــرك، فيومـــاً ما -بل هو واقع الآن- ســـوف يـــأتي بعض الناس ويدعو ويقول: يا رسول الله! ويظن أنه لم يـأت من بلاد بعيدة إلا لزيارة قبر الرسـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ولدعاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا هو الشـرك الأكـبر -والعيـاذ باللـه- وهو صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي حمى التوحيد، ودافع عنـه، وجاهد في الله حق جهاده، حتى لا يعبد إلا الله، ومع ذلك يتخذ وسيلة.

وأحياناً يعرض في التلفاز أناس عند القبور يدعون، فيقول بعض الناس: لو كان شركاً هذا أو فيه شيء ما كان ليعرض في التلفاز، وهذا من الاقتداء بمن ليس بقدوة، وهذا من مصائب الناس، أنهم يرون الآيات الواضحة والأحاديث الصحيحة في الشرك، ولكنهم يتركونها ويقولون: هذا يعرض في التلفاز ولو كان فيه شيء لما عرض.

إذاً فيستدبر الإنسان القبلة، ويستقبل القبر ويدعو، فحتى لو دعا الله فإن هذا بدعة، وإنما الصحيح والمشروع أن الإنسان إذا زار المدينة فينوي بالزيارة زيارة المسجد لا القبر، فإذا زرنا المسجد وزرنا المدينة فإننا نسلم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه، وأيضاً نزور البقيع .

وهذه هي الزيارة الشرعية، وأيضاً إن كنت في أي مكان وزرت المقابر زيارة شرعية بآدابها الشرعية، فهذا فيها أجر عظيم، وفيها تذكير بالآخرة، ونحن مأمورون بها لأنها تذكرنا بالآخرة.

فالذي يزور القبر، ويسلم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبيه، ثم يدعو ويستغيث عند القبر، وعند البقيع ، أو عند شهداء أحد ، أو عند أي مقبرة من المقابر، فهذا لا يجوز، بل ندعو الله وحده، ولا نشرك به أحداً.

التوسل البدعي

ثم النوع الثالث من أنواع التوسل: هو التوسل البدعي، وقد عرفنا التوسل الشرعي، وعرفنا التوسل الشركي، والثالث هو: التوسل البدعي.

التوسل البدعي هو أن يكون المدعو هو الله، لكن يدعى الله تبارك وتعالى بغير ما شرع، فلا يدعو الله بأسمائه

الحسـنى أو بالأعمـال الصـالحة، ولكن يـدعو الله فيقـول: اللهم إني أسألك برسولك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، أو أسألك بفلان، أو بحق فلان، أو بجاه فلان، وكثير من النـاس يقولـون: بجـاه محمد أو بجـاه نبيـك، فـإذا قيل لهم: هـذا التوسل غير مشروع، قالوا: بل هذا توسل صحيح ومشروع، ولكن أنتم تكرهون الرسول صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ -نعـوذ بالله- ولو لم تكونـوا تكرهونه لكنتم تتوسـلون به إلى اللـه، لأنه هو أعظم وسيلة.

فنقول: أما كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أعظم واسـطة بين الله تعـالى وبين عبـاده فلا شك عنـدنا في ذلـك، ولكنه واسـطة بلاغ، أما كونه واسـطة عبـادة لا ترفع إلى الله إلا عن طريقه، فهذا هو دين النصارى واليهود والمشركين.

أما دعـاؤه فهو شـرك، وأما دعـاء الله بجاهه أو بذاتـه، فبيننا وبينكم الدليل، وبيننا وبينكم أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلم يكن الصـحابة رضـوان الله تعـالى عليهم يتوسـلون إلى الله بجـاه أو ذات النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ولا يقولون: نسألك بمحمد، أو يا رب نسألك بجاه نبيـك، وهـذه الأدلة بين أيدينا، ونـذكر دليلاً واحـداً صـحيحاً لا شك عنـدنا وعند أهل البدع في صحته، وهو الاستسقاء.

فقد استسـقى الصـحابة رضي الله عنهم في زمن عمر بن الخطاب وخرجوا للاستسـقاء وكـان عمر رضي الله عنه معهم فقـال: [[اللهم إنا كنا نتوسل إليك بمحمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، والآن نتوسل إليك بعم نبيـك، يا عبـاس ! قم فادع الله]] فقام العباس فدعا وأَمَّن المسلمون.

فإذا قال المخالف: هـذا دليل على أنهم كـانوا يتوسـلون بالنبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ويقولـون: اللهم إنا نسـألك بنبيك.

قلنـــا: هـــذا الـــدليل هو دليلنا نحن عليكم، وليس كما تفهمون، لأنه إن كان المقصود جاهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فإن جاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ لا يمـوت بموتـه؛ لأن جاه النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عند الله عظيم، ومنزلته عند الله عظيمة، في حياته وبعد مماته.

وإنما عـدل الصـحابة عن التوسل به إلى التوسل بعمـه، وذلك لأن المقصود أنه في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ هو الذي يـدعو لهم وهم يخرجـون معـه، والآن بعد موته صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عمه العباس يدعو لهم.

وهذا واضح والحمد لله، وشبهتهم داحضة.

فالصحابة رضي الله عنهم علموا أنه بمـوت رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أصـبح لا يملك ضـراً ولا نفعـاً، ولا يستطيع أن يدعو لأحد كما كان في حياته، حيث كانوا يأتون إليه ويقولـون: ادع الله -يا رسـول اللـه- ليفـرج عنـا، كما جـاءوا إليه وهو في ظل الكعبة وقـالوا: يا رسـول اللـه! إن قريشاً قد آذونا، فادع الله لنا.

أما بعد موت النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فهم يـأتون إلى من رأوا فيه الصـلاح، وهكـذا المسـلمون في أي وقت من الأوقـات لو كـانوا يريـدون الاستسـقاء أو غـيره، فـإنهم يذهبون إلى من فيه الخير والصلاح من عبـاد اللـه، من أهل الفضل والدعوة، ويقولون: ادع الله لنا أن يسقينا، وهـذا هو المشروع، وليس فيه توسل لا بالذات أو بالجاه.

فإذاً التوسل أو دعاء الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى بحق فلان، أو بجــاه فلان، هو توسل بــدعي، أي: ليس مشــروعاً، لأنه لو كان مشروعاً لما كان بدعياً، وكل بدعة ضـلالة وكل ضـلالة في النـار، وليس هو شـركاً؛ لأنه دعا اللـه، لكن لو قـال: يا حسين ! يا علي ! يا عباس ! فإنه يكون شركاً.

فهــذه هي أنــواع التوسل الثلاثــة: الشــرعي والبــدعي

والشـركي، وعرفنا أن من يـدعون ويعبـدون من دون اللـه، من الأنبيــاء والصــالحين هم أنفســهم كــانوا يعبــدون الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، وقد قـال تعـالى فيهم: يَبْتَغُـونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِــيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْــرَبُ وَيَرْجُــونَ رَحْمَتَــهُ وَيَخَــافُونَ عَذَابَــهُ [الإسراء:57].

18 - أركان العبادة

والعبادة تكون بثلاثة أركان:
1- الحب.
2- الخوف.
3- الرجاء.

وهذه الآية تضمنت أركان العبودية، فهم يحبونه ويبتغـون إليه الوسيلة أيهم أقرب، وهذا هو الحب.

ويرجون رحمته، وهذا هو الرجاء.

ويخافون عذابه، وهذا هو الخوف.

فهذه هي أركان العبادة الثلاثة: الحب والخوف والرجاء.

والســـلف الصـــالح لهم كلمة عظيمة في من يعبد الله بشيء ويترك بقيتها، أي: الذي يأتى بركن من هـذه الأركـان الثلاثة، ويترك الأركان الأخرى.

الركن الأول: الحب

فقــالوا: ' من عبد الله بــالحب وحـده فهو زنـديق ' كما قالت اليهـود والنصـارى: نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ [المائـدة: 18] فيقـول الزنـديق: أنا أحبـه، وإذا أحببته وأحبـني، فـإن الحــبيب يعفو عن حبيبــه، ومهما أخطأ الحــبيب على حبيبه فإنه لا يؤاخذه.

فيســتحل المحرمــات ويقــول: نحن نعصي الله ونحبه -تعـالى الله عما يقولـون- فهم لا يخـافون عذابه ولا يرجـون رحمته، ويقولـون: نحن لا نعبــده من أجل الجنة أو من أجل النار، ويقولون: أنتم تجار، تعبدونه من أجل الجنة والنار، أما نحن فنعبده لذاته -محبة فقط- فهـؤلاء زنادقـة، لأن الأنبيـاء والرسل عبدوا الله بالثلاثة.

الركن الثاني: الخوف

' ومن عبد الله بــالخوف وحــده فهو حــروري ' ومعــنى حـروري أي خـارجي، لأن الخـوارج كـانوا في مدينة إسـمها حــروراء قــالت عائشة رضي الله عنهــا، لما ســئلت{ : لِم تقضي الحـائض الصـيام ولا تقضي الصـلاة: قـالت أحرورية أنت؟ } فهذا هو مذهب الخوارج بدعٍ وابتداع، أي: تريـدين أن تقيسي بعقلك وتقضين الصلاة أيضاً؟! فهذا ديننا، والدين لا نسـأل فيه ولا نجـادل، فالـذين عبـدوا الله بـالخوف هم الخوارج فكانوا يقومون الليل، ويصـومون النهـار، ويقـرءون القـرآن، وكـانت عبـادتهم كما ذكر النـبي صَـلّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ للصحابه: {تحقرون صلاتكم إلى صـلاتهم، وقـراءتكم إلى قـراءتهم } فعنـدهم خـوف فقـط، ولا يوجد رجـاء، أو محبه، فلم ينفعهم ذلك، وقال رسول الله صَـلّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ: {يمرقـون من الـدين كما يمـرق السـهم من الرمية } إذا رميت الرمية واخترقها السهم وخرج منها.

فهم خرجوا من الدين ومرقوا من الدين.

الركن الثالث: الرجاء

' ومن عبد الله بالرجاء وحـده، فهو مـرجئ ' وهـذا حـال أكثر الناس، وإن كان لا يعرف معنى الإرجاء، لكن حاله يدل على ذلـك، فتجـده يقـول: الله غفـور رحيم، ونحن من أمة محمد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وكلما تنصحه في شـيء يأتيك

بالرجاء، أما والخوف -الله شديد العقاب- فهـذا لا يريدونـه، والنار لا تذكرها، حتى أن بعضهم بلغت به الوقاحة والسـوء، أن يقـول: إنه عنـدما نعلم الأولاد -وهـذا كتب في الجرائـد- في المرحلة الابتدائية القـرآن فيقـرءون: تَبَّتْ يَـدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسد:1]... وَامْرَأَتُـهُ حَمَّالَـةَ الْحَطَبِ [المسـد:4] ثم يقـول المـدرس: هـذا في النـار، يقولـون: إن هـذه تخيف الأطفال، فهم لا يريدون ذكر النـار، فتجـدهم يقولـون: نحن مسلمون ومتمسكون، والإسـلام عقيـدتنا وشـريعتنا... ومن هذا الكلام، وكأننا لم ننقص عما كان عليه الصحابة، إلا أنهم رأوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن لم نره، فكل أعمالنا شـــــــرعية، وأي عمل يعمله الواحد ليس فيه أي خطأ أو قصور، وبعض العلماء يقولون: الدين يسر لا تتشدد فيه.

فهؤلاء يعبـدون الله بالرجـاء فقـط، وينسـون الحب، ولو أحبوه لخافوا منـه، ولو أحبـوه لاسـتحيوا منـه، لأن ' الحيـاء حياء المحبين' كما يقـول ابن القيم رحمه اللـه، فـإذا أحببت أحــداً فإنك تســتحي منه أن يــراك على شــيء لا يعجبــه، فكذلك لو أحبوا الله عز وجل لاسـتحيوا منـه، ولما جـاهروه بالمعاصي.

إذاً نكون -بإذن الله- قد بينا ما في هــذه الآية من دحض لشبهة المشركين، وبيان لتفسير التوحيد وشــهادة أن لا إله إلا الله، وأنواع التوسل الثلاثة، وأركـان العبـادة الثلاثة الـتي اشــتملت عليها الآيــة، وهي آية عظيمــة، وكل كتــاب الله عظيم، ولو أننا توسعنا في أي آية من كتاب الله، وأخـذنا ما فيها من العبر والفوائد، لطال المقام وضاق الوقت .

ولــذلك نطلب من أنفســنا ومن إخواننا -دائمــاً وأبــداً- الرجوع في المواعظ إلى المواعظ القرآنية، لا إلى الأمثـال والحكم وإن كـــانت تنفـــع، لكن نجعلها تكميلاً وتحســـيناً، والرجوع في العقيدة إلى كتـاب الله تبـارك وتعـالى، وسـنة رسوله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، والرجـوع في الأحكـام إلى كتـاب الله وسـنة رسـوله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ففيهما

البيان والهدى والشفاء والموعظة.

19 - الأسئلة

حكم استشعار الأمن في الدنيا

السؤال: الذي يستشـعر أنه آمن في الـدنيا، هل هـذا هو الأمن المقصـود في قوله تعـالى: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ [الأنعـام:82] وهل يكون مخطئاً أو مصيباً بهذا الشعور؟

الجواب: الأخ يتعرض لموضوع الأمن في هذه الدنيا، فهو يقول: أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعـام:82] هل هـذا الأمن يكون في الدنيا، والذي يستشعر هذا الأمن في الـدنيا هل يكون مخطئاً أم مصيباً؟

فنقول: هناك تفصيل لا بد أن يكون في هذه المسألة:

أولاً: هــذا الأمن وهــذا الاهتــداء: أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:82] هو للمؤمن الموحد في الدنيا والآخرة ولا ريب في ذلك، وأعظم أمن يأمنه الإنسان في الـدنيا، هو أن يطمئن قلبه بــذكر اللــه: أَلا بِـذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـوبُ [الرعد:28] فيأمن بذلك ويسكن إليه، والاهتـداء بـأن يكـون مستقيماً، كما ندعو ربنا تبارك وتعالى في كل ركعـة: اهـدنا الصراط المستقيم) ولكن هذا الأمن والإهتداء لا يكون لمن أعرض عن ذكر الله: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طـه:124] فمن أعـرض عن ذكر الله ليس له أمن حتى في هـذه الـدنيا، فلا يطمئن أو يأمن ولا يستقر له قـرار أبـداً، ولو أوتي من كنـوز الـدنيا جميعاً.

وهـذه الـدول الـتي يسـمونها متطـورة ومتقدمـة، وكل الرفاهية الدنيوية موجودة، مع ذلك يوجد الشقاء فيها، حيث

الانتحار والقلق والجرائم والفساد والتفكك العـائلي، شـيء رهيب جداً، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى هل يعني ذلك الأمن أن الإنسان يـأمن أنه ليس منافقاً، وليس مشركاً؟

ليس هـذا هو المقصـود، بل الـواجب في هـذا أن نخـاف منـه، يقـول الحسن البصـري رحمه الله عن النفـاق: [[ما خافه إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق]] فالمؤمن يخـاف من النفـاق، ويقـول ابن أبي مليكة وهو من التـابعين: [[أدركت ثلاثين -وفي بعض الروايـات قـال: ثمـانين- من أصـحاب محمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، كلهم يخشى على نفسه النفاق]].

ولهذا لما قال الله تبارك وتعـالى: وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَا آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُـونَ [المؤمنـون:60] فسرها النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ -والحـديث له طـرق يشد بعضـها بعضـاً- لما سـألت عائشة رضي الله عنهـا: هل هم الـذين يزنـون ويسـكرون ويتـبرجون في الأسـواق، ويتعـاطون المحرمـات -والعيـاذ باللـه- فهـؤلاء يفعلونها ويخافون من الله، فهل هؤلاء هم المقصودون في الآية؟

لا، هـؤلاء ليسـوا مقصـودين في الآيـة، بل هم الـذين يصلون ويصـومون ويحجـون ويزكـون، ويفعلـون الطاعـات، ولكن يخافون ألا تقبل منهم.

فإذاً المؤمن مهما اجتهد واستقام فإنه يضل خائفاً، حتى قال بعض الصحابة: [[لو وضعت قـدمي اليمـنى في الجنـة، ما أمنت حـتى أضع الأخـرى]] وهـذا من شـدة خـوفهم رضي الله عنهم، فالمؤمن يخاف من هذه الناحيـة، لكن هو مطمئن -والحمد للـه- من ناحية أخـرى أنه عـرف اللـه، واطمأن بذكر الله، فهو مرتاح من هذا الجانب.

ولـذلك ما أصـابه من مصـيبة أو هم أو غم أو أذى؛ فإنه دائماً يسكن ويشعر بهذا الاطمئنان الذي لا يجـده أحد أبـداً إلا من كان مؤمناً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ففرق بين هذا وبين هذا.

مرتكب الكبيرة والمبتـدع هل يكـون مع أصـحاب اليمين أو أصحاب الشمال

السؤال: الـزاني والقاتل وآكل مـال اليـتيم إذا لم يتوبـوا هل يأخذون صحائفهم باليمين أم بالشمال؟ وصاحب البدعة إذا لم يتب هل يأخذ الصـحيفة بـاليمين أو بالشـمال؟ وما صحة الحديث: {إن الله حجب التوبة عن كل صـاحب بدعة حتى يدعها } أو كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الجـواب: هـذه قضـية فيها إشـكال، وهي أننا قلنـا: أن أصحاب الكبائر هم من أهل الوعيد.

وداخلـون في الوعيد فيـأتي الإشـكال عند بعض النـاس، يقـول: عنـدما يمـوت الإنسـان تأتيه الملائكـة، إما أن تأتيه ملائكة الرحمة، وهذا ليس فيه إشكال،إن جاءته باعتبـار أنه من المقربين أو من أصحاب اليمين. وهذا واضح.

فالقسم الرابع في سـورة فـاطر، الـذين هم الكفـار - أصحاب الشمال- مصيرهم معروف.

لكن الإشـكال في الثـالث الـذي في سـورة فـاطر أي: الظالم لنفسه.

فمثلاً: مـرتكب الكبـيرة عند المـوت هل يمـوت ويُتـوفى على أنه من أصـــحاب اليمين أم على أنه من أصـــحاب الشـمال؟ فـالزاني وشـارب الخمر والمهمل في صـلاة الجماعة ومن يعق والديه ومن يتعامل بالربـا، هـذا نحن متفقون قطعاً أنه ليس من المقربين أو السابقين.

فإما أنه في أصـحاب اليمين، وهـذا فيه إشـكال، إذ كيف يوضع معهم، وهو متوعد أنه من أهل النار.

وإن قلنا: أنه مع الكفار، فهؤلاء كفار وهو ليس بكافر.

فنقول: حل هذا الإشكال من جهتين:

الجهة الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى في القـرآن يعـبر ويــبين لنا أعظم الأمــور، وغاياتهــا، أي: عنــدما يتكلم عن المؤمـنين يعطينا غاية وكمـال الإيمـان, وعنـدما يتكلم عن الشــــرك والكفر فإنه يعطينا غاية وكمـــال الكفر وحقيقتة الكاملة، ولا يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى ما كـان دون ذلك من درجات، مثل البيان الشافي الكامل الكافي لهؤلاء.

فهذا القـرآن فرقـان يفـرق بين الكفـار المؤمـنين، فهما خطـــان واضــحان متمــايزان، لكن كـــون أهل الوجـــوه أو الصحائف المبيضة بعضها أكثر بياضاً من بعض، وكـون هـذه القلوب بعضها أكثر إيمانـاً من بعض، فهـذا شـيء آخر غـير مسألة بيان هذا من ذاك.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا المؤمـنين أصـحاب الدرجة العليا في الإيمــان، وعنــدما يتكلم عن الكــافرين يــبين لنا الصــورة المطلقة من الكفــر، وهم الجاحــدون المكــذبون الذين لا يعرفون الله أبداً.

وأما ما دون ذلك فالتفصـــيل مـــتروكٌ فيـــه، وليس هو السائد والأغلب في القـرآن، ولكن جـاءت السـنة ففصـلت فيه أكثر.

الجهة الثانية: أن هذه مراحل وعقبـات طويلـة، فلا ننظر لها من زاوية أخذ الصحائف، أو ملائكة العـذاب عنـدما تأتيه فقط، بل نقول: الإنسان خاتمته بمجمـوع أعماله -بمجمـوع

العمل الصالح أو مجموع العمل السيئ- فهذا المذنب لو فرضنا أنه آكل مال يتيم،أو زانٍ هذا إن كان مجموع عمله -والله تعالى عليم بما يفعلون: لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ [الحاقة:18]، وقال تعالى: وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء:47] وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً [يونس:44] وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [النساء:40] ولا يضيع الله تعالى عملاً من عملك-.

فإن كان هذا الإنسان مجموع أعماله تغطي على تلك الكبيرة ولا تؤثر فيها، فهذا يكون حشره وموته؛ مع أصحاب اليمين ويأتونه ملائكة الرحمة ليحشر ويصنف مع أصحاب اليمين، وهذا مع وجود الكبيرة، لأن حسناته كثيرة غطت على سيئاته، فهذا احتمال.

والاحتمال الآخر: أنه ينال في الدنيا من العذاب، والابتلاء الذي يعاقب به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصحاب الذنوب، ثم يعذب في سكرات الموت، وقد لا يكفي هذا لتكفير هذه الخطيئة، بل زيادة على ذلك أنه يعذب ويمحص في قبره -نسأل الله العفو والعافية- لأن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

وبعض أهل الكبائر لا يكفي فيه عذاب الدنيا والنصب والهم والغم، وما يبتلى به عند الموت، ولا ما يبتلى به في قبره من العذاب، بل يعذب في عرصات القيامة، فيكون المؤمنون في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -وهو ظل العرش- وفي ذلك الأمن: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [الانبياء:103] فرحين آمنين مطمئنين، وأما هو فهو خائف وجل يعاني من العذاب: من عذاب الموقف وأهواله، ومن كربات يوم القيامة، وما أعظمها من أهوال.

ولكن إذا جاءت الصحف ونصبت الموازين وتجلى

الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفصل القضاء، قد يُكتفى بما عذب به في الموقف والقبر، وعند الموت، وفي الدنيا ويُعفى عنه. فهذا أيضاً درجة.

ودرجة أخرى، أنه قد لا يكتفى بذلك، بل يُزاد على ذلك بأن يحاسبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويناقشه، فيعذب ويقرر بذنوبه، وتشهد على بعضهم جوارحهم، وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، ثم يأتي يأخذ الصحيفة بشماله، ويأتي لجواز الصراط أو الجسر: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً [مريم:71] فهو يريد أن يتجاوز فتختطفه الكلاليب -نسأل الله العفو والعافية- زيادة على ذلك لوجود الذنوب والكبائر، ولأنها تطغى على الحسنات فاستحق أن يدخل النار -نسأل الله العفو والعافية-.

ثم الذين يُخرجون من النار -وقد اتفقنا أن الموحد لا يخلد في النار، ولا يبقى فيها أبد الآبدين كالكفار، وإنما يبقى فيها أهلها الذين هم أهلها، وهم الكفار والمشركون ومنهم تاركو الصلاة كما بينا- هؤلاء أيضاً درجات، فالعذاب في النار دركات، وليسوا سواءً، وكذلك الخروج ليس سواءً، فالذي في قلبه أدنى مثقال ذرة أسرع خروجاً من الذي في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة، وهذا يخرج قبل من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة كما سمعنا في الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه.

إذاً المسألة تتفاوت وتتدرج في مقامات وعقبات، وكلها عقبات أمام العاصي -نسأل الله العفو والعافية-.

فيجب على كل إنسان يعصي الله تعالى بهذه الكبائر، أن يتصور هذه العقبات، وهذه الأهوال أمامه، وأن يبادر ويمحو هذا كله بالتوبة النصوح كما تقدم، فالتوبة تجبُّ ما قبلها، والإسلام يجبُّ ما قبله , والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فإذا لقي الله تعالى تائباً، ولو لم يتب إلا قبل أن يغرغر -ولننظر إلى الله، وسعة فضله، كيف نخطئ نحن

على أنفسنا بأن لا نتوب ولا نستغفر- فمن تاب قبل أن يغرغر وقبل أن تصل الروح إلى الحلقوم، غفر الله تعالى له وقبل توبته، وهو يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

فإذاً الواجب المبادرة إلى التوبة والاستغفار من هذه الكبائر.

وأما صاحب البدعة فهو كصاحب الكبيرة كما ذكرنا، وهذا إذا كانت البدعة لا تخرج من الملة كما ذكرنا، وإذا كانت بدعة مكفرة فهو من الكفار ومن الصنف الثالث في سورة الواقعة، والرابع في سورة فاطر.

وأما حديث: {إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدعها } فالحديث صحيح، وممن رواه بطرقه الإمام ابن أبي عاصم رحمه الله تعالى في كتابه: السنة ، وجاء في بعض الروايات حجب، وفي بعضها حجز، وهذا دليل على خطر البدعة وأنها أخطر من الذنوب الأخرى.

حكم التوبة من الذنب ثم العودة إليه

السؤال: ما حكم من يفعل الذنب ثم يتوب، ثم يعود إلى الذنب ثم يتوب وهكذا يستمر حاله؟

الجواب: فرق بين من يذنب ويتوب ثم يعود، ثم يذنب ويتوب ويعود وهكذا باستمرار، وهو يفعل ذلك استمراءً واستهزاءً ولا مبالاة، ثم يقول: استغفر الله وتبت إليه، ثم يرجع إلى الذنب.

وبين إنسان تاب توبة نصوحة صادقة ثم غلبه شيطانه وهواه فوقع في الذنب، فهذا كلما جُدد له الذنب، يجب عليه أن يجدد التوبة، فهذا مسكين لأنه في معركة، لا هو

انتصر فيها وقام، ولا هو غُلب فيهـا. فهو يَغلب مـرة، ويُغلب مرة، لكن الـواجب في هـذه الحالة أن يتقـوى؛ لأن العـدو -الشـيطان، والنفس، والشـهوة- مجتمعـون عليـه، فعليه أن يستعين بالله، ويقـوي إيمانـه، إذ ما يدريه أن يدركه الأجـل، وهو في حالة الهزيمة أو الضعف وهو مغلوب مرتكب لهـذه الفاحشة -نسأل الله العافية-.

ولـــذلك ســـوء الخاتمة مما ينبغي أن نتنبه لـــه، وكـــان السلف الصالح يتنبهون له، فقد قال رسول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: {إن أحـدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حـتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتـاب فيعمل بعمل أهل النـار فيـدخلها } وليس معـنى ذلك كما قد يفهم، أنه كـــــان يعمل بعمل أهل الجنة في الظـــــاهر فقط وهو في الحقيقة مشرك ومستهتر وتارك لما أمر الله ولا يبـالي بـه، فإذا جاء الموت عمل بعمل أهل النـار، أي: أظهر عمل أهل النار فيدخلها، فليس هذا هو المعنى الصحيح للحديث.

ولكن المعنى الصحيح للحديث: إن الإيمـان يزيد وينقص، والإنســـان مجتهد يعمل بعمل أهل الجنـــة، ولكن يضـــعف دائماً، والنفس البشرية تضعف، فمن كُتبت له سوء الخاتمة -وهذا الـذي يجب أن نخـاف منه جميعـاً- هو من يأتيه الأجل وهو في حالة السقوط، وفي حالة الضعف.

والواحد منا يصلي الفجر في خشـوع وإيمـان وطمأنينـة، فيــأتي الظهر وكأنه مجبــور على دخــول المســجد، وهــذا ملاحظ ونشـــعر بـــه، فانتبه أن تلقى الله وأنت في حالة الضـعف، وحـاول دائمـاً أن تجتهد وأن تكـون في حالة قـوة الإيمـان وزيـادة الإيمـان والنشـاط للطاعـة، وكل النفـوس تضعف؛ لكن المهم أن تظل نفسك دائماً متحفزة لأن تكون من أهل الســبق والمســابقة والمســارعة في الخــيرات والطاعات.

فــإذا جـاء الأجل ولم تكن على الطاعة الكاملـة، فلتكن

على سـبيل الإدراك لها والسـعي لها لحصـولها ولا تكن في حالة السقوط -نسأل الله العفو والعافيـة- كالإنسـان الـذي ختم له ومات، ولم يصل الفريضة، مع أنه يصــلي، لكن تلك الفريضة تركها تكاسلاً عنها؛ فمات ولم يصل، فهذا هو سوء الخاتمة -نسأل الله العفو والعافية-.

وأيضــاً رجل -مثلاً- لم يكن مســتمراً في الفاحشة ولم يكن يزني، فزنى مرة ثم مات -نسـأل الله العفو والعافيـة- أو شرب الخمر ثم مات وهو سكران وهو لم يكن فيما قبل -فعلاً- يشرب الخمر أو يزني.

فهــذا مما ينبغي أن ننبه إليه في مســألة التوبة وســوء الخاتمة، فكلما أذنبنا نجدد التوبة والاستغفار، ولنعلم أن هذا العــدو لن يــدعنا، ولنسـتعين عليه باللــه، ولنقل إيــاك نعبد وإيــاك نســتعين، فلا بد من الاســتعانة وهي أعظم أعمــال القلوب.

حكم بعض الكلمات التي يطلقها العامة

السؤال: هل من الشرك بالله أن يقول الإنسـان لأخيـه: ادخل بالرحمن، وأن يقول أحدهم: الله بالوجود، وغيرها من الألفاظ المنتشرة بكثرة هاهنا؟

الجـــواب: إذا قـــال: ادخل بـــالرحمن، أو قـــال: معك الـرحمن، فبعض الإخـوة ينكر هـذا، وهـذا ليس فيه شـيء، فـالرحمن معنا بنصـره وحفظه وتوفيقه وتأييـده، ومن هـذه المعاني: إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [طه:46].

والمعية معيتـان: معية عامة للنـاس جميعـاً: وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ [الحديد:4] أي: بعلمه.

فالله سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى بعلمه واطلاعه هو مع النـــاس جميعاً ودائمـاً أين ما كـانوا، كما بين الله تعـالى: مَا يَكُـونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ [المجادلة:7] وهو بذاته تبارك وتعالى فوق العرش: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:5]

وقد ذكر الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى اسـتواءه على العـرش في سـبع آيـات من القـرآن، وذكر علـوه في آيـات من القـرآن وأحاديث لا تحصى ولا تعد.

فهو تعـــالى بذاته فـــوق العـــرش، لكن بعلمه معنا ومع الناس جميعاً، ولكن هو بحفظه ونصره وتأييده مع المتقين: أَنَّ اللَّهَ مَـعَ الْمُتَّقِينَ [البقـرة:194] ومعـنى ذلك أنه معهم بحفظه وتأييده، فإذا قلت: كان الله معك، فهو دعاء لك بأن يكون الله معك، أو معك الـرحمن بهـذا المعـنى، فهـذه حق وصحيح، ويجب أن نحمل الألفاظ المحمل الحسن -إن شاء الله تعالى-.

والله في الوجود ليس فيها شيء أيضاً، بـأن يقـول: الله في الوجود، أو الله بالوجود، كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَـابِ [الأنعـام:165] إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ [الفجـر:14] فالكلام الذي تقوله العامة بمعنى: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى ليس بغـائب عنـا، وليس أصم ولا غائبـاً، كما بيَّن الرسـول صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه، وإنما هو معنا ومطلع علينا.

هم إذاً أرادوا الخير، فقالوا: الله في الوجـود، أي: يمكن أن يرحمنـا، وإذا أرادوا الشـر، قـالوا: الله في الوجـود، أي يمكن أن يعذبنا، وينتقم من العاصي، فالكلام -إن شاء الله- صـــحيح، ولا أرى أن نـــدقق على العامة خاصة في بعض الألفاظ الـتي نحن طلبة العلم نسـتخدم ما هو أفضل منهـا، إنما الـــذي ينبغي أن نرفق بهم، وأن نعلمهم العبـــارة الصحيحة، إما صـحيحة لغة وشـرعاً، أو على الأقل صـحيحة شرعاً، وإن كانت بلغتهم أو بلهجتهم العامية.

السبب في غضب الله يوم القيامة

السـؤال: ذكـرتم أن الله يغضب يـوم القيامة غضـباً لم يغضب قبله ولا بعده مثله، فما سبب غضبه عز وجل؟

الجــواب: هو كما جــاء في الحــديث نفسه -في حــديث الشــفاعة-: فــإن الله قد غضب غضــباً لم يغضب قبله ولم يغضب بعــده مثله } وســبب ذلك أن هــذا اليــوم هو يــوم الفصــــل, ويــــوم الحســــاب, وكل الظلمة والطــــواغيت والمجــرمين، وكل من أمهلهم الله ســبحانه ومن أنظــرهم الله سبحانه مجتمعون، وهذه هي ساعة الانتقام من الجميع -نسأل الله العفو والعافية- وليس هناك غضب أشد منه.

ويغضب عز وجل في هذه الدنيا, كــأن يغضب على أمم, كما غضب على قــوم نــوح فــأغرقهم, وعلى عــاد فأرسل عليهم الــريح العقيم، وعلى ثمــود فأخــذتهم الصــيحة، ولكن الغضب يوم القيامة على كل من كفر وعصى وكــذب وجحد وأنكــر, فــذلك الموقف هو أعظم المواقــف، ليس قبله ولا بعده مثله.

حكم الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم

الســؤال: بعض النــاس إذا أصــابتهم مصــيبة يقــول: يا محمد! أو يا نبي الله! فما حكم ذلك؟

الجواب: هذا دعاء لغير الله, فيجب عليه أن يشــهد أن لا إله إلا اللــه, وأن يســتغفر الله ويتــوب، وألا يــدعو إلا اللــه, وكما قــال صــلىالله عليه وســلم { الــدعاء هو العبــادة } فهــذا قد عبد غــير الله بدعائــه, وعليه أن يقــول: يا رب! يا اللــه! يا رحمــان! يا رحيم! يا غفــور! يا عزيــز! فيــدعو الله سبحانه بأسمائه الحسنى: لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف:180] فهكذا أمر الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى، أما دعــاء غير الله فشرك.

حكم طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم

الســؤال: بعض النــاس يقــول: الشــفاعة يا محمــد, أو يا علي ! وهذا يشيع في العوام، فما حكم ذلك؟

الجـواب: الشـفاعة لا تطلب إلا من الله تبـارك وتعـالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْــفَعُ عِنْــدَهُ إِلَّا بِإِذْنِــهِ [البقــرة:255] وأما الشـــافعين فقـــال فيهم: وَلا يَشْــفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَـــى [الأنبيــاء:28] فلا بد من إذن الله ســبحانه للشــافع ورضى الله تبـــارك وتعـــالى عن المشـــفوع لـــه، ولا نطلبها من المخلوق.

ولهذا في حديث الشفاعة أن الرسـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ، بنفسه يسـجد تحت العـرش, ويحمد الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويثني عليه بمحامد يلهمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إياهـا، حتى يقال له: {ارفع رأسك, وسل تعط, واشفع تشفع }.

إذاً فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلب حـتى يـؤذن لـه، فكيف يــدعى صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ, وكيف يطلب منه هذا؟! فهذا من الشرك.

حكم الاستهزاء بآيات الله ورسله

السؤال: يقول الأخ من يستهزئ بآيات الله ورســله، هل يعطى أحكام الإسلام الظاهرة؟

الجواب: في غزوة تبوك استهزأ المنـافقون بـالقراء من الصـحابة، وقـالوا: 'ما رأينا مثل هـؤلاء القـوم أوسع بطونـاً, وأجبن عند اللقاء' فسخروا واسـتهزءوا بحملة الـدين وليس بالدين، ومع ذلك فإن الله تبـارك وتعـالى يقـول: قُـلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ [التوبــة:65] إذاً الاسـتهزاء بمن يحملون هذه الرسـالة هو اسـتهزاء بهـا، لأن المقصـود الطعن فيها هي.

أما إن كان الإنسان يقصد مجـرد شـخص الداعية فقـط، فهذه كبيرة من الكبائر، لكن إن كان المقصود ما يدعو إليه من الحق والخير والهدى، فهذا استهزاء بالله تبارك وتعـالى

وآياته ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان لم يذكر الله وآيات الله ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما ذكر الداعية أو العالم أو القارئ أو الشيخ.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرهم على ظاهرهم -لكن من يستهزأ بالدين ويعلن بذلك لا يقر على ظاهره ولا يعطى أحكام الإسلام الظاهرة- لأنهم جاءوا ليعتذرون ويقولون: والله ما كنا إلا نخوض ونلعب, ولذلك يقول الله: لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [التوبة:66] فالذي يبدر منه شيء, ويحلف أنه لا يقصد الاستهزاء ويعتذر, فهذا نَكِل قلبه إلى الله.

ولكن من أظهر شيئاً ولم يرجع عنه ويقول: هذه هي الحرية, فهذا هو الذي يحكم بردته, ويجب قتله ردة، فلذلك يعطون الأحكام الظاهرة إذا حلفوا وادعوا الرجعة وأنهم لم يقصدوا، فإذا جاءوا بعذر مقبول شرعاً, يرفع عنهم السيف, ويوكل أمرهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حقيقة شعار الثورة الفرنسية

السؤال: هل من الممكن ذكر شعار الثورة الفرنسية عندما قامت؛ حتى يعرف كذب الصحافة وجهلها, حينما تصفها بأنها أعطت الإنسان الحرية؟

الجواب: الثورة الفرنسية قامت تدعو إلى ثلاث شعارات: الحرية, والإخاء, والمساواة.

وحقيقة نحن لا نظلم الثورة الفرنسية, فنحن المسلمين لا نظلم أحداً, لا أمة, ولا طائفة!

فالثورة الفرنسية بالنسبة لأوروبا أعطتها حرية, وإخاء, ومساواة؛ لأنهم ما كانوا يعيشون إلا في حكم الإقطاع، فكان الإقطاعي يملك الأرض ومن فيها, ويتحكم في خلق

الله كما يشــاء، ورجــال الــدين -الأحبــار والرهبــان- الــذين ذكــرهم الله في القــرآن: إِنَّ كَثِـيراً مِنَ الْأَحْبَـارِ وَالرُّهْبَـانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ [التوبـة:34] كـانوا يملكـون الأراضي ويتحكمون بعباد الله، فكان هناك ظلم شديد جداً.

أما الملوك الذين ثارت عليهم الثورة، فكانوا يــدعون أن الله تعــالى أعطــاهم من عنـــده هـــذا الحكم, وفوضـــهم ليتحكموا بالعبـاد كما يشـاءون، ويسـمون هـذا الحق الإلهي للملوك.

فأمام هذا خرجت الثورة الفرنسية تقول: لا. المواطنون كلهم سواء في الحقوق والواجبات، ففـرحت أوروبا ، وهـذا صحيح وشيء جيد.

فـأول من دعا الإنســان الأوروبي إلى الحريــة, والإخــاء, والمســـاواة من الأوروبـــيين هو الثـــورة الفرنســـية، وقد أعطاهم إياها رسول الهدى محمد صـلى الله عليهم ولكنهم ما قبلوها، فقد كتب إلى ملكهم هرقل عظيم الـروم: { من محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ إلى هرقل عظيم الروم, السلام على من اتبع الهدى, أما بعد: فأسلم تســلم، وإن لم تســـلم فإنما عليك إثم الآريســـيين } قيـــل: هم الفلاحون، وقيل هم فرقة آريوس .

فالشاهد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ كتب إلى هـذا الملـك, الـذي كـان رجـال الـدين, والإقطـاعيون كلهم تحت حكمه, فإذا لم يسلم فعليه إثم هؤلاء, لأنهم مقهـورون -كما يقال طبقة مضطهدة- فهذه الطبقة لا تملك شيئاً, ولا تملك حرية الاعتقـــــاد, ولا تعـــــرف الحق إلا عن طريق ملوكها وأحبارها ورهبانها.

وعــرض عليهم الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَى ذلك في القــرآن، فالإســلام دخل إلى الأنــدلس , وجنــوب إيطاليا , وجنــوب فرنسا ، ولكنهم رفضوا دين الله, ورفضوا الإخــاء الحقيقي,

والحرية والمساواة الحقيقيـة, وقد أوضـحها الله تعـالى في كتابـــه, ورفع الظلم ونهى عنـــه, فرفضـــوا ذلك كلـــه, وما عرفوه إلا عندما جاء عن طريق ثورتهم الفرنسية.

والحقيقة أنها جاءت بظلم آخر, فالثورة الفرنسية رفعت ظلم الإقطاعيين, وجاءت بظلم الرأسماليين، فـدفعت ظلم الملــوك, وجــاءت بظلم نــابليون وأمثالــه، وهكــذا لا يمكن للناس أن يتحقق لهم العدل إلا بدين الله وبشرعه.

حكم الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم

السـؤال: ما حكم من يحلف بـالنبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، أو يقول: وحياتك؟

الجواب: هذا من الشـرك، إن حلف به معتقـداً أن له ما لله تعـالى من التعظيم, فهـذا شـرك أكـبر، وإن كـان مما يغلب على اللسان ويسبق عليه، يقول: والنبي, أو وحياتـك, أو وكذا، فهذا من شرك الألفاظ, وهو أكـبر من الكبـائر لأنه شـــرك، وإن كـــان لا يخـــرج من الملـــة، ولكن يجب على الإنسان أن يتوب منه.

كيف يكون الإيمان بعذاب القبر

السـؤال: كيف يتحقق عـذاب القـبر أو نعيمه لمن مـات حرقاً مثلما يفعله كفار الهند عندما يحرقـون موتـاهم حـتى يصبحوا رماداً، ويقومون بنـثره في البحـر، أو عنـدما يمـوت أحد كأن يأكله حوت -مثلاً- أفيدونا؟

الجـواب: أولاً: هـذا من أمر الغيب, وكل شـيء أخـبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نؤمن ونصدق بـه, شـاهدناه أم لم نشاهده، ولا نقول: كيف! ففي أمر الغيب لا نقول كيف، ولكن نسلم.

ثانيـاً: إن القـبر كلمة تطلق على الـدار الـتي بين الـدنيا والآخـــرة، وبعض النـــاس يفهم فقط أن القـــبر هو هـــذه الحفرة، فالقبر معناه الـبرزخ: وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَـرْزَخٌ إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُونَ [المؤمنـون:100] فمعنـاه الـدار الـتي بين الـدارين, والبرزخ بين الدارين -بين الدنيا والآخرة- فإن كان حرقـاً, أو في البحر, أو في أي مكان, فيقـال في قـبره، أي: في داره الـتي هي بين الـدارين، لكن لأن الأغلب أن النـاس يـدفنون في الحـالات الطبيعية في القبـور، فيطلق القـبر عليها على سبيل التغليب.

ثالثاً: أن الله تبارك وتعالى ضرب لنا أمثلـة, وهي كثـيرة جداً, ولكن نأخذ مثلاً واحـداً منهـا: اللَّهُ يَتَـوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ [الزمر:42].

فالموت موتان: موت كامل كلي, وهو الذي نسميه نحن الموت, والموت الآخر موت جزئي ناقص وهو: النـوم، وفي الآية دليل على هذا.

فقد تجد إنســاناً نائمــاً, فتقــول: اتركــوه يرتــاح, فــإذا أيقظته, قال لـك: يا ليتك أيقظتـني قبل قليـل, فتقـول لـه: لمـاذا؟ يقـول: كنت في مصـيبة, وفي كـرب, فمثلاً رأى أنه غــرق في البحــر, وأنت كنت تــراه أمامك جثة هادئــة، وهو يعاني من هذه الرؤيا, ويقوم متعبـاً, يجد الإرهـاق والإجهـاد, كأنه فعلاً كان يصـارع البحـر، سـبحان الله العظيم! وتقـول له: كان قصدي أن ترتاح.

فهذا مثل وعبرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكــذلك في القــبر, تمر على القبــور, فتقــول: السـلام عليكم دار قــوم مؤمــنين، ولكن ما أدراك مــاذا ينــال هــذا الميت من العــــذاب أو النعيم، نســـأل الله العفو والعافية ونسـأل الله لنا ولكم النعيم, ونعـوذ بالله من عـذاب القـبر وجحيمه.

فهذه الوفاة التي تحدث لنا جميعاً كل يوم -وهي النـوم- نعتـبر منها بالوفـاة الأخـرى، فنحن نـرى المقـابر, أو نـرى جنـازة, لكن هـذا في غاية النعيم, وذاك في غاية العـذاب -والعيــاذ باللــه- كما أن بعض النــاس يــرى في منامه رؤيا حسنة، ويقـول: ليتك تركتـني، فقد كنت في سـعادة ونعيم, ويقول الآخر: ليتك أيقظتـني, فقد كنت في شـقاء وعـذاب, وهكذا، مع أن الحال أمامك واحد، والأمثلة كثيرة جداً ولكن نكتفي بهذا.

ونكرر القول الأول: أن المسـألة إيمـان، وأول ما وصف الله تعالى المؤمنين، قال: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة:3] فنـؤمن بـالغيب, حـتى ولو كـانت أفهامنا وعقولنا تقصر عن إدراك حقائقــــه، فالرجل الـــــذي {قــــال لأولاده إذا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروا نصفي في البحـر, ونصـفي في الـبر، فوالله لو قـدر الله عليَّ ليعـذبني عـذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، فجمعه الله تعالى بقولـه: إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [يس:82]، فقـال الله تبارك وتعالى له: يا عبـدي! لما فعلت ذلـك، قـال: خوفك يا رب، فغفر الله له }.

الشاهد أنه مهما نقول: هـذا في البحـر, وهـذا في الـبر، هي مسألة كن وانتهى الأمر, والله تبارك وتعالى قـادر على كل شيء سبحانه.

سبب اجتماع اليهود والنصارى على المسلمين

السؤال: إن اليهود يتهمون عيسى بأنه ابن زنا، ومع ذلك نرى توافقاً بين الكنائس اليهودية والنصرانية . فكيف هذا؟

الجواب: يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَى أَوْلِيَـاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [المائدة:51] فاليهود والنصارى في

حقيقتهم أعـداء ويتحـاربون, ويكـذب بعضـهم بعضـاً, ويكفر بعضهم بعضاً, ولكنهم متعاونون يداً واحدة ومتناصرون على المسلمين, فهذا حالهم.

فإســرائيل تفعل المصــيبة، وأمريكا تتخذ الفيتو هنــاك، وبينهم في الحقيقة خلاف شديد.

فالرئيس الأمريكي كارتر أكبر داعية للتنصير في العالم, وقد جــاء إلى أفغانســتان وباكســتان والســودان والحبشة وكثــير من الــدول ينشر فيها النصــرانية ، ومع ذلك هو مع اليهــود، واليهــود يكفرونه ويكــذبون بكتابــه, ولا يصــدقون بعيسى, ويكذبون بالإنجيل، ولكن مع هـذه العـداوة فـاليهود والنصارى يد واحـدة علينـا، وهـذا من هواننا على اللـه؛ لأنه إذا عصـاه من يعرفـه، سـلط عليه من لا يعرفـه، فتكـالبت علينا الأمم كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ, وتـداعت كما تتــداعى الأكلة إلى قصــعتها، فعنــدما تركنا الإيمــان الصـحيح والعقيـدة الصـحيحة, والعمل بكتـاب الله وســنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ اجتمعوا علينا.

فهم كما ذكر اللــه: تَحْسَــبُهُمْ جَمِيعــاً وَقُلُــوبُهُمْ شَــتَّى [الحشــر:14] واليهــود أنفســهم مختلفــون, وهم طوائــف، والنصــارى مختلفــون, وهم طوائــف، لكن يتوحــدون بل توحدت معهم اليابـان والصـين والهند كلهم ضـدنا, ففي أي يوم تفتح الإذاعات العالمية تسمع: المسلمون في سريلانكا أو الهند أو الصـين أو إفريقيا يـذبحون، ولو أن أحـداً حلف -أظنه لا يحنث- أنه لا يمر يــــوم إلا وللمســــلمين مذبحة أو مصيبة أو فتنة في أي مكان، على يد الهنود أو الصــينيين أو في أمريكا أو أوروبا أو في أي مكان.

لقد هــانوا علـى اللــه, لما تركــوا كتــاب الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى فسلط الله عليهم أعداءهم.

نســأل الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنــا, وأن يعيد هــذه الأمة إلى رشـدها وصـوابها، وأن يلهمها الخـير في الاعتقـاد

والقول والعمل إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

كيفية دعوة الشباب المسلم إلى الالتزام

السؤال: كيف ندعو الشـباب المسـلم غـير الملـتزم إلى الالتزام، وما هو أول شيء ندعوهم إليه؟

الجواب: يجب عليك أن تتعرف عليه قبل أن تدعوه، أي: هل هو من أهل اللهو والغناء، فإذاً ندعوه إلى معرفة اللــه، وتعظيمــه، وتعظيم أمــره، ونخوفه بالله واليــوم الآخــر، ثم ندخل في النصيحة إلى أن يترك هـذه المعصـية، وليس من الضـرورة أن نبـدأ بها أول مـرة، ولكن المهم أن يكـون في أذهاننا أن يترك ما هو عليه.

وإن كــــان آكل ربــــا، ومحافظ على الصــــلاة في نفس الوقت فإذا جئته وذكرته بالصلاة، ووجوب الصـلاة، وأهميتها وضرورتها، وما أعد الله للمحافظين عليها، قــال: الحمد لله هـذه كلها نفعلهـا، وإن شـاء الله لا نقصر فيهـا، والمصـيبة الكـبرى عنـده في الربـا، فنحتـاج أولاً أن نعـرف واقعه ثم ندعوه.

ولو كـان من أهل البـدع -وبعض البـدع مكفـرة ومخرجة من الملـة- فلا ينفعه صـلاة أو جهـاد، ولا أمر بـالمعروف أو نهي عن المنكر إن كــــانت البدعة مما يخــــرج من الملة -نسأل الله العفو والعافية-.

فإذاً نحن نتعرف على الشاب ثم ندعوه إن شاء الله.

توضيح للثلاثة المقصودين في قول النصارى: ثالث ثلاثة

الســؤال: نرجو توضــيح من هم الثلاثة المقصــودون في

قول النصارى: ثالث ثلاثة؟

الجـواب: النصـارى من شـركهم يسـتفتحون صـلاتهم ومـواعظهم في كنائسـهم بقـولهم: باسم الأب والابن وروح القدس، وهذه هي الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، لكن كما قال ابن القيم رحمه الله قال: ' لو اجتمع من النصـارى عشرة نفر لتفرقوا في عقيدتهم على أحد عشر قولاً ' فإذا فتح أحدكم -ولا نعـني أي أحد لكن من يعـرف هـذه الأديـان وضـلالها وباطلهـا- ليسـمع سـاعة الإفسـاد الـتي يسـمونها سـاعة الإصـلاح في مونتكـارلو وغيرهـا، فيجد أن المـذيع لا يستطيع أن يحدد بالضـبط العقيـدة، حيث لو حـدد لاختلفـوا فيـه، فهو يقـول: إنه المسـيح والمخلص والمنقذ وكـذا، والثلاثة واحد والواحد ثلاثـة، لكن العلاقة بين هـذه الثلاثة يقولون: هذا سر، علينا أن نؤمن ولا نفكر، كيف تؤمن بهـذا الضلال ولا تفكر فيه؟!

فالحمد لله الـذي ميزنا بالتوحيـد، ففي أوروبا وأمريكا تجد الإنسـان من عبـاقرة العلم الـدنيوي، في علم الفلك أو علم الفضـاء أو علم الـذرة، وفي العلـوم الطبيعية والتجريبيـة، فـإذا سـألته عن دينه يسـتحي -والله أكـثرهم يستحي- وبعضهم يقول: اترك جانب الدين، لا أريد أن أتكلم فيه،وإذا رأى أن المسـألة فيها إلـزام يقـول عن نفسـه: أنه غير متدين أصلاً، لأن ليس عنده شيء يدافع عنه.

وإذا تكلمت مع أسـتاذ رياضـيات مثلاً -وكل واحد يعـرف مبادئ الرياضيات- تقول له: كيف هذا واحد وهذا واحد وهذا واحد، وأنتم تقولون: الأب، والابن، وروح القدس، إله واحد، فكيف الثلاثة واحد؟! فيقول لك: لا أعرف.

وأكثر الغربيين المفكرين يريح نفسـه، ويقـول لـك: هـذا موضـوع الـدين لا أفتحه ولا يهمـني، لكن إذا كـان شـخص منهم متعصب، ممن يريـدون أن ينصّـروا -وهـؤلاء خطـرهم عظيم- فإنه يقول: لا. هذه عقيدة عظيمـة، وهـذا سـر، وإذا

سـمعت كلامه وفلسـفته، وذهبت إلى غـيره فإنك تلاحظ كلاماً آخر، وغيره كلام ثالثاً... وهكذا.

وكل كنيسة لها مـــذهب، فــــالبروتستانت لهم رأي، والكاثوليك لهم رأي، وكل واحد له رأي، وكل شخص يفسر ويـــترجم على حسب هـــواه، والقصص الواقعية في هـــذا الشأن كثيرة.

وقد قـــال لي أخ قابلته وكـــان نصـــرانياً ثم هـــداه الله للإسلام، وهو رجل آتاه الله ذكاءً وفهمـاً، فسـألته فقـال: أنا ألخص لك الموضـــوع في كلمة واحـــدة، الإســـلام دين بلا رجال، والنصرانية رجال بلا دين.

فالإســلام دين حق وقــوة لكن من يــدعو إليه وينشــره ويطبقه، ومن يقيمه حتى يراه الناس؟

نحن إن دعونا النـــاس إلى الإســـلام بأقوالنـــا، فأعمالنا تقول لهم لا تفعلوا، وهذه حقيقة، وإن لم نعترف بالحق فلا خير فينا أصلاً، فيجب أن نعترف بقاعدة العيب والخطأ.

وهذا الغرب على ما فيه من ضـلال وكفر وظلمـات، هم مثل ناس في الظلام، لكن وضعوا علامات وأعمدة، فيمكن للواحد أن يمسك بهذه أو بهذه، فهم لم يروا شيئاً، وهم في ظلام،ولم يدخلوا الجنة،ولم يروا النور؛ لكن بنـاءً على هـذه العلامات وتمسكهم بها،قاموا في الدنيا،واسـتعمروا العـالم، وفرضـوا فكـرهم وثقـافتهم ورأيهم وهم أصـغر قـارة في العـــالم، وكـــانوا أمنع النـــاس من ظلم الملـــوك،وأرأفهم بالضعيف والمسكين،كما قـال عمـرو بن العـاص رضي الله عنه عنهم، وهــذا موجــود في أوروبا ، وأمريكا ، فالإنســان هنالك له دينــه، ويســتطيع أن يتكلم ويطـالب، والنظـام هو المهيمن على حياتهم، ولا يوجد وساطات.

لكن نحن في النور، والحمد لله مثل الشـمس في رابعة

النهار، لكن نمشي وبعضنا يصدم بعضاً، وبعضنا يضــرب في بعض، فلا نستطيع أن نمشي في خط مسـتقيم، مع أننا في النــور، وهــذا الفــارق بيننا وبينهم، فمع أنهم في الظلام إلا أنهم تمسـكوا بالنظـام والعـدل وبأشـياء غطت ما عنـدهم، فتكلمهم في أي موضوع إلا الدين فهم يسـتحون ويخجلـون منه، أما المسلمون -والله المستعان- فدين ولكن بلا رجال.

حكم بعض الجماعات التي تدعو إلى الله وأصلها يحتـوي على الشرك

السؤال: يقـول: بعض الجماعـات تـدعو إلى اللـه، ولكن أصلها يحتوي على الشـرك، سـواءً كـان في المؤسسـين،أو في بعض الأفراد وهي خـارج هـذه البلاد، وبعض الجماعـات أول ما تدعو إلى أن يكون الإنسان بنفسه داعية؟

الجـواب: من يـدعو إلى الله وهو متلبس بالشـرك، هـذا في الحقيقة لم يدع إلى الله.

وإذا كـان أول ما نـدعو إليه هو التوحيد وتـرك الشــرك، وهو متلبس في الشـــرك،فلا فائـــدة ولا خـــير في ذلك كما أشرنا.

وكون الإنسان أول ما يلتزم يُجعل داعية،هــذا من الغلط الذي لا تقـره العقـول السـليمة فضـلاً عن أحكـام الشـرع، كيف تأتي بإنسان جاهل، ثم تجعله يدعو ويتكلم؟!

وهذه مشكلة، فإذا الأعمى قـاد الأعمى سـقطا معـاً في الحفرة، لكن يجب أن تكـون الأمة المـدعوة يقودها الـدعاة والعلمـاء الربـانيون، كما قـال الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى: وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ [آل عمران:79].

منزلة الولاء والبراء من التوحيد

السؤال: هل صحيح أن التوحيد له هذه الأقسام الثلاثة فقط: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، أم أن هناك أقساماً أخرى، وهل الولاء والبراء -مثلاً- من التوحيد، فهو يدخل في الأنواع الثلاثة؟

الجواب: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، هذا أعظم شيء أمر الله تبارك وتعالى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، وحث عليه الإسلام؛ بعد الشهادتين، فهو من جملة الاعتقادات، ومن الأحكام العملية المتعلقة بالاعتقادات، وهي جزء من الشهادتين.

والركن الثاني هو الصلاة، لكن من حيث أن حقوق لا إله إلا الله الاعتقادية القلبية كثيرة، فمن أعظمها ولازمها المعاداة للكفار.

وعندما يقول إنسان: لا إله إلا الله، فإن لها ركنين: النفي والإثبات.

فالنفي: لا إله، وهي نفي الألوهية عما سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدخل في ذلك النفي، البراءة من الشرك والمشركين، فلا يعقل أن شخصاً يقول: أنا أتبرأ من الشرك؛ لكن تجده يحب المشركين: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [المجادلة: 22] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ [الممتحنة:1] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [المائدة:51] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ [آل عمران:100] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ [آل عمران:149] إلى آخر الآيات.

فهذه قضية مهمة جداً، وهي داخلة ضمن تحقيق توحيد الألوهية، وإن لم نجعلها قسماً من أقسام التوحيد.

سبب حالة الذل والهوان في الأمة

السؤال: موضوع الموالاة والمعاداة، وأن الإسـلام حكمه في التعامل مع الكفـــار، لا بد من الإســـلام أو الســـيف أو الجزيـة، وأن واقعنا الآن هو غـير ذلـك، فهل هو عبـارة عن صلح دائم إلى قيام الساعة؟

الجـواب: ليس هـذا صـلحاً، والصـلح لا يـدوم إلى قيـام السـاعة، بل المسـألة مسـألة ذل، لقد ضـربت علينا الذلة والمسكنة -والعياذ بالله-.

لأننا حل بنا ما حل ببـني إسـرائيل، أعرضـوا وأعرضـنا، وأنكـروا وأنكرنـا-والحمد لله الطائفة المنصـورة موجـودة، ولكن نتكلم الآن عن عمـــوم الأمـــة- وعطلـــوا حـــدود الله وعطلناهـــا، وأكلـــوا الربا وأكلنـــاه، ما فعله بنو إســـرائيل واستحقوا به الذله والمسـكنة فعلنـاه -والعيـاذ باللـه- فلا بد إذاً أن نأخذ نصيباً من ذلك.

وإن كنا -ولله الحمـد- نحن أمة محمد صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ ومنا طائفة منصـورة ، لأن بـني إسـرائيل كلهم قد ضلوا وانحرفـوا إلا بقايا قليلة منهم، ولم يكن فيهم ربـانيون وأحبار ينهونهم.

فالمقصـود أنا لما أخـذنا نصـيباً وافـراً من اتبـاع اليهـود والنصـــارى، أصـــابنا حظ كبـــير مما توعد الله به اليهـــود والنصـارى، ولا يُعقل أو يُتخيل أن الله يعـذب اليهـود لأنهم أكلة ربا، ونحن أكلة ربا يبارك لنا ويعزنا وينصرنا، فإنه ليس بين الله ســـبحانه تعـــالى وبين أحد من خلقه نسب أبـــداً، فـإبراهيم عليه السـلام يقـول الله تعـالي عنـه: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَـالَ إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامـاً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة:124] قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي [البقرة:124] وحق لإنسان أن يريد الخير

له ولذريته، فقال له ربه: لا يَنَالُ عَهْـدِي الظَّالِمِينَ [البقـرة: 124] فلا مجاملـــــــة، من ظلم من أبنائك يعامل معاملة الظــالمين، معاملة النمــرود ، أو فرعــون، فنحن الآن أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، نعمل أعمـال اليهـود وأخلاق اليهود، ونقول: أين النصر الذي وعد الله به المسلمين؟

فحالنا اليوم هو سبب لهذا الذل، وأكـبر علامة على هـذا الـذل، أن الدويلة اليهودية -لم نكن نسـميها في السـابق إلا دويله وعصـــابات، والآن لم نعد نســـميها عصـــابات، لأنها أصحبت أمة- الصهيونية تضـرب مقـراً في تـونس على بعد خمسة أو سـتة آلاف كيلو مـتر عنهـا، وتضـرب في العـراق على مسـافة ألف كيلو مـتر، وتهـدد بضـرب المفاعل الـذي في باكســـتان ، وتفــرض رهبة على المنطقة كلهـــا، وهم عددهم يقال: ثلاثة ملايين أو أربعة، وماذا يصنعوا لو وصــلوا إلى عشرة مليون أمام ألف مليون؟!

فالقضية ليست قضية عدد، حتى نعرف أنه ما كـان هـذا الذل والهوان؛ إلا لأنا عصينا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأصبح المجرمون هؤلاء يصولون ويجولون؛ ولو قمنا لله قومة حق لنصـرنا الله على أعدائه سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، ولهـذا أصبحت القضية عنـدنا كما ذكر السـائل كأنه صـلح دائم مع الكفـــار -والله المســتعان- نسترضـــيهم وغاية ما نفعل أننا نشجب العدوان.

حكم السحر وعلاجه

السؤال: انتشر السحر في هذه الأيام بشـكل كبـير، فما هو تعليق فضيلتكم على هذا؟ وما هو علاج السحر؟

الجواب: أقول: -ومع الأسف- إن السحر انتشر في هـذه الأيام بشكل مذهل، وربما انتشر في بعض الـبيوت، وأقـول هـذا تنبيهـاً للإخـوة الكـرام الـذين لا يـدرون بانتشـاره عن

طريق النساء والزبانية الأخفياء، والمداخل الخفية دائماً،ولو فتشتم البيوت لوجدتم شيئاً عجيبــاً من هـذا، لأنه مما يبلغنا ومما يكتب إلينا ونكلف به شيء عجيب، وبالـذات في بعض المناطق. فبعض النساء لا تريد أن يتزوج زوجها عليهــا، فما الحل؟

فكرت وسألت فقيل لها: هاتِ مائة ريـال وأعطيك ورقة تضـعينها في المطبخ أو في غرفة النـوم, ثم لا يعـود زوجك يفكر في غيرك أبـداً، ولا يسـمع ولا يبصر غـيرك، وقد تـؤثر هــذه الورقــة، والله سُـبْحَانَهُ وَتَعَــالَى ذكر التـأثير، فقــال: فَيَتَعَلَّمُـونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُـونَ بِـهِ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِـهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة:102].

فالسحر منتشـر، وإن لم يكن هنا بكـثرة فهو منتشر في تهامة ، وهذا السحر كفر باعتراف معلمي السـحر، فالـذين علموا الناس السحر -هاروت وماروت- اعترفوا بذلك، وهذا ليس كلام أحد من النــاس، بل كلام رب العــالمين، يقــول تبـارك وتعـالى: وَمَا كَفَـرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَـدٍ حَتَّى يَقُـولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَـةٌ فَلا تَكْفُرْ [البقرة:102] فهم يقولـون: تعـال نعلمـك، وإنما نحن فتنة فلا تكفر، فلا يشك أحد بعد هذا أن السحر كفر، وكيف يكون هذا السـحر إلا بالـذبح للجن، وإهانة القـرآن -والعيـاذ بالله تبارك وتعالى-.

وأعطيكم علامة، والعلامات كثيرة، والسحر كثير:

أي شـخص يسـمونه طبيبــاً، إذا ذهب إليه شـخص، أول خطوة يبدؤها يقول له: ما اسمك؟ واسم أمك؟ فـاعرف أن هذا مشـعوذ سـاحر كـاهن دجـال، فهـذا أول شـيء يبـدأ به معك، ثم يريد يعرف نجمك، وقد يـأتي زوجـان مع كل واحد منهما برج، وزوجان آخـران معهما البرجـان نفسـهما، فنجد أن الزوجين الأوليين متفقان تمامــاً، وأن الآخـرين مختلفـان

تماماً. وهذا واقع في حياة الناس، ولكنهم يضحكون بهذه الأبراج على البسطاء.

ولهذا لو كان هؤلاء الذين يقولون: نحن نفك السحر لوجه الله، ولا نتعامل إلا مع الجن المؤمنين الطيبين، ونحن نفعل الخير، لو كانوا كذلك فليظهروا أنفسهم وأعمالهم، وليبينوها للناس، ويناقشهم في ذلك من يناقشهم، ويقبل ذلك من يقبل، لكن هذا التستر وهذا التخفي، لو كان عنده حق لماذا يخاف؟

ولو رأى هذا الساحر سيارة حكومية، أو رجل أمن، فإنه يقول: ما دام رجل أمن أو سيارة حكومية، فقد جاءوا يقبضون عليَّ؛ لأنه يعرف أنه مذنب -يكاد المجرم أن يقول خذوني-.

ولا أنقل هذا من فراغ، فبعض من تاب الله عليه وهداه، أقر بهذا، يقول: جلسنا نضحك عليهم عشرين سنة، والذي يقول: عشر سنين، والآن نريد أن نتوب إلى الله.

وأما علاج السحر المشروع فيمكن -والحمد لله- وإن كان صعباً والوقاية أفضل؛ لأن الوقاية أفضل من العلاج، والوقاية بالأذكار اليومية المعروفة، ومنها آية الكرسي والمعوذتين، فهذه هي الوقاية وغيرها، لكن إن وقع فعلاجه صعب، ولا بد من الصبر فيه، ومن علاجه هذه الآيات، وهذه الأذكار، مع ما ذكره بعض العلماء أيضاً من الأدوية المادية، مثل أن يؤخذ سبع ورقات من سدر وتدق وتستخدم، وهذه بعض العلماء يذكرها، ولا أرى أن يلتزم بها، ولكن أقول: أي علاج مادي يمكن أن ينفع فليسلكه الإنسان، ولكن يُجتنب هؤلاء الدجالون المشعوذون.

حكم استثمار الأموال بطريقة مشروعة في البنوك الربوية

السـؤال: هل اسـتثمار الأمـوال على أسـاس الـربح والخسارة في البنوك حلال أو حرام؟

الجـواب: إذا كـان الإنسـان يريد أن يعمل عملاً على أساس الربح والخسارة مع أي إنسان،فهذا هو الأصل في المعاملات.

فالأصل أنَّا إذا أردنا أن نعمل شـركة أن تكـون كـذلك، لكن لو فرضـنا أن هـذه المعاملة أو غيرها من المعـاملات الجـائزة نريد أن نتعامل بها مع البنـك، فإنا نكـون قد أعنا هؤلاء، فهو يأتي ويقـول لـك: أنتم تخـافون منا من أجل أننا نعطيكم فائدة مضـمونة، فـالآن لم نعد نضـمن لك الفائـدة، اعطنا الفلـوس وإن خسـرنا أنت شـريكنا، وإن ربحنا أنت شـريكنا، ثم يأتيك مـرة ويقـول: ربحت (10%) فيعطيـك، ومرة يقول: خسرنا (10%) وترد له العشرة، وهو لم يتغير شيء في عمله.

فنحن -بإذن الله- لا أحد يضحك علينا، وخاصة في الدنيا، فعندما نقـول لهم: غـيروا، نريد أن يغـيروا الربا الـذي توعد الله عليه بـالحرب، وقد قـال رسـول الله صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: {درهم ربا أشد من ست وثلاثين زنية } فشـخص عنـده بيـتين، أو بيت واحد فيه غرفـتين: غرفة يعقد فيها بـالحلال، والأخـرى للحـرام، تريد الحلال هنـا، والـذي يريد الحرام في الغرفة الثانية، فلا نقول: هذا عنده حلال.

فهـذا مثل البنـوك، يقـول: نتعامل بالربا مع طوائف من النـاس، لكن هـؤلاء المتـدينين كيف نـأتي بـأموالهم؟ فيفتح فرعـاً في نفس البنك للمعـاملات الإسـلامية، والغرفة والمكتب والمـدير واحـد، والإدارة العامة واحـدة، فهـؤلاء يضحكون علينا، وهذا هو حالهم.

من بدع الجنائز

السؤال: هناك بدع تتعلق بالجنائز، مثل أن يجتمع الناس في مكــان ويقــرءون ريــاض الصــالحين بشــكل جمــاعي، ويصفون صفوفاً، فما رأيكم في هذا؟

الجواب: بدع الجنائز كثيرة، ومن العجيب أنه ظهر عندنا بدع لم نكن نظن أن الأمر يصل إليها.

فمثلاً: كنا نعــرف بعض البــدع ثم الحمد لله ظهر العلم والخير والنور ووزعت فتاوى سماحة الشــيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله، فكان لها أثر طيب، ولكن بقي بعض النــاس أدخلــوا بعض التحســينات في البــدع، فمثلاً: وُجد أن بعض الناس يقـرأ من كتـاب ريـاض الصـالحين أثنـاء العـزاء على الميت على شكل صفوف وعلى نمط معين من الكلام.

فإذا جاء شخص يقول: هذه بدعة، فـإنهم يقولـون: مـاذا تقول؟! قراءة كتاب رياض الصالحين بدعة! والعلمــاء كلهم يقولون: إنه كتاب طيب.

فيقولــون: ما رأيك في الكتــاب؟ فيقــول: كتــاب طيب، لكن البدعة ليست طيبة، فهذا شيء ما شرعه الله، فقراءة رياض الصالحين في العـزاء وكـذلك الوقـوف بشـكل معين ورص الصفوف وقراءة كلام معين والتكلف في العزاء هذه كلها مخالفـــات، وديننا كله قـــائم على اليسر والبســـاطة والفطــرة، والصــحابة رضي الله عنهم كــانوا يعــزون أهل الميت في الطريق أو في المسجد أو عند المقـبرة بكلمـة: أحسن الله عزاءكم، وعظم الله أجركم، لله ما أخذ ولله ما أعطى، رحم الله ميتكم، ومثل هــذه الأمــور، فيكتب له أو يكلمه، وانتهى الأمر بعد ذلك.

فالعادات السيئة التي -للأســف- بــدأت تنتشر عنــدنا من صف الناس صفوفاً ثم الجلوس ثم قراءة رياض الصــالحين أو غـير ه،هـذه كلها من البـدع، كما قـال صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ: {من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد } حــتى

لو كـان قـراءة قـرآن أو حـديث لكنه على وجه بـدعي فهو مــردود على صــاحبه، ويجب على الإنســان ألا يــذهب أو يجلس مع هــؤلاء، فــإذا كنت أنت تعــرف الميت وتريد أن تعــزي أهله فعــزه بالوجه الــذي ذكرنا ســابقاً، وإن كنت لا تعرفه وإنما مجاملة للناس فهذا ذنب، ولا يصـبح هـذا عـزاء في الحقيقة، ولكن مجاملة للجماعـة، ولكن الإنسـان يـدعو للمسلمين بالمغفرة والرحمة والله أعلم.

حكم الذبائح والولائم في العزاء

السؤال: ما حكم الذبائح والــولائم في بيت الميت، حيث أن أهل الميت هم الذين يقدمون هذا؟

الجـواب: هـذه تصـبح بدعة مركبـة، حيث تكـثر الـولائم والذبائح، وكأن الأمر انقلب إلى عيد ومهرجـان، فـإن كـانت الولائم من نفقة الورثة، أي: من مال الميت، فهـذه مصـيبة على مصيبة، وهـذا سـحت وحـرام، فلا يجـوز أن يؤخذ مـال أحد إلا بطيب نفس منه، وخاصة إن كـانوا عجـائز وأرامل -مثلاً- أو أطفال صغار، من قال لنا: أن نأتي على مال هـؤلاء الأطفـال، ونــذبح منه ما نشــاء ونتغـدى، فهل هــذه أجــرة الـدفن؟ هـذا لا يجـوز، وإن كـان من مـال متـبرع فـالمتبرع يقتفي أثر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وصـحابته: {اصـنعوا لآل جعفر طعامــاً } فيصــنع طعامــاً ويقدمه لأهل الميت. لكن من أين جـاءت البدعـة؟ من الـتزام الـذبح والاجتمـاع، وكما كـان الصـحابة رضي الله عنهم يعـدون الاجتمـاع على العزاء من النياحة, والنياحة قد غلّظ فيها رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حكم استقدام الكفار للعمل في جزيرة العرب

السؤال: يقول: لدينا عمال هنـدوس يعبـدون الأبقـار من دون الله، وقد عرضنا على بعضهم الإسـلام فرفضـوا بحجة أن أهلهم سيقتلونهم إذا أسلموا، فماذا يجب علينا تجاههم؟

الجواب:

أولاً: يجب أن نعلم جميعـــاً أنه لا يجـــوز أن يجتمع في جزيرة العرب دينـان، وجزيـرة العـرب تشـمل من أطـراف العراق والشام شمالاً، إلى البحر العربي وخليج عدن جنوباً، والخليج شرقاً والبحر الأحمر غربـاً، حـتى يـدخل فيها جميع دول الخليج ، وقال بعض العلماء: يدخل فيها البصـرة أيضـاً، أي: جنوب العراق وبادية الشام ، فكل هذا جزيرة العـرب ، ولا يجتمع في جزيرة العرب دينان.

فقد أوصى النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وهو في موته بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، وأخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أنهم كانوا في خيبر ، وكـانوا كـالرقيق يعملـون في الأرض، ويزرعونها للمسـلمين، فهم كالعبيد، ومع ذلك أخرجهم عمر رضي الله عنه وأجلاهم إلى بلاد الشام .

فلا يجوز استقدام العمال من غير المسلمين إلى جزيرة العــرب بأكملهــا، بما فيها دول الخليج واليمن ، فضــلاً عن هذه البلاد التي فيها الحرمان الشريفان، وقد أفـتى العلمـاء بذلك، ومنها فتوى طويلة لسماحة شيخنا ووالدنا الشيخ عبد العزيز بن بـــاز حفظة الله في كتابه مجمـــوع الفتـــاوى المطبوع، بيَّن فيها هذه الأدلة وأكثر منها.

فلا يجوز لأي إنسان منا أن يستقدم عمـالاً كفـاراً، ثم ألا تدرون أن الكفار يتقوون بما نعطيهم على المسـلمين، وأن هذا فيه مـوالاة ومحبة لهم، وفيه تعظيم وتقـدير لهم، وهـذا كله نحن منهيون عنه.

فلا يجوز أن نستقدم العمال الكفار، ولا يقل شـخص: لم أعلم، فالـذي يقـول: لم أعلم العجب منه أكـثر من الـذي يقول: لم أجد؛ لأن الذي لا يعلم معـنى ذلك أن الإنسـان لم

يجعل موضــوع الــدين وارداً على ذهنه أصــلاً، فــذهب إلى هناك وأخذ، مثل الذي يروح إلى ســوق الغنم، ويشــتري كم رأس غنم وينصــرف ولا يســأل، فهــذا يــذهب إلى بلاد فيها مسلمون وكفار، وفيها أبرار وفجار، ثم لا يسأل، وتقول: لم أعرف، وعنــدما رجعت إلى هنا علمت أنهم هنــدوس، فهــذا الكلام لا يجوز ولا ينبغي.

وفي دول معـــروف أن الأغلبية فيها كفـــار، مثل كوريا والفلــبين والصــين وتــايوان ، ففي هــذه البلــدان أكــثرهم أو كلهم كفار إلا النادر، وهذا كما في كوريا .

أما الـــذين معهم عمـــال هنا في البلاد فيجب عليه أن يسفره، ويخرجه من جزيرة العــرب ، وليس لأحد عــذر في هذا، لأن البديل موجود، وإلا يكــون الأمر كما كتب عمر إلى أبي موسى الأشــعري رضي الله عنــه، وكــان واليــاً على الكوفة ، فاستخدم كاتباً نصرانياً، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: [[بلغني أن لديك كاتباً نصرانياً فأبعده]].

وهــذا لم يكن في جزيــرة العــرب ، لكن لأنه كــاتب تمر عليه بعض معاملات وأمــور من أمــور المســلمين فلا يجــوز، فقال: [[إنه يحسن الحســاب]] وذكر أن عنــده خــبرة في الأمور، ونحن من أجل خبرته أتينا بــه، فكتب إليه رضي الله عنــه: [[إذا جــاءك كتــابي هــذا فهب أن النصــراني مــات، والسلام]] إذا مات النصــراني مــاذا تفعــل؟ فــعمر رضي الله عنه جعلك أمام أمر واقع.

ثم إن هؤلاء -واللــه- لا يضــمرون لنا إلا الغش في الــدنيا والآخرة.

أما الــذين لا ينهانا الله عنهم، فهم الــذين لم يقاتلونا في الــدين، ولم يخرجونا من ديارنــا، فهــؤلاء لا ينهانا أن نــبرهم ونحسن إليهم، كما بين الله تعالى في سورة الممتحنة.

فهذه حالة المسلمين لما كـانوا في المدينة ولهم أقربـاء كانوا في مكة ، فكـان الصـحابة رضي الله عنهم يتحرجـون من معـاملتهم بعد أن أنـزل الله أول السـورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَـاءَ تُلْقُـونَ إِلَيْهِمْ بِـالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَـقِّ يُخْرِجُـونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ [الممتحنة:1] فبين الله تعالى أنه من كـان من الأقـارب، أو في حالة كــون الإســلام والــدعوة في أول أمرهــا، أو إذا ابتعثت إلى أمريكا مثلاً، واضـــطررت إلى ذلـــك، وأنت بين قــوم كفـار، فلا ينهانا ديننا عن الصــلة لأهل الصــلة والــبر كالوالـــدين وإن كانا كـــافرين، قـــال تعـــالى: فَلا تُطِعْهُمَا وَصَــاحِبْهُمَا فِي الــدُّنْيَا مَعْرُوفــاً [لقمــان:15] أو الإحســان والعدل، فنحن لا نظلمهم التعامل وإن كانوا كفاراً.

فانتشار الكفار في هذه البلد الطاهرة شيء عجيب.

ثم عذره في عدم الإسلام هو ليس بعذر، يقـول: أخـاف أن يقتلـوني، فنقـول: يجب على الإنسـان أن يعلم أن هـذا الـدين نجـاة من عـذاب الـدنيا والآخـرة، وخـروج من جـور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سـعة الـدنيا والآخــرة، ومن كل عبـادة العبـاد أو الأبقـار أو الأحجـار أو الأشخاص أو البشر أو الزعماء؛ إلى عبادة الله وحده.

فهذه قضية يهون أمامها أي شيء، ثم نحن الـدعاة علينا أن ندعوه حـتى يتمكن الإيمـان من قلبه -بـإذن الله تعـالى- وسوف يهون بعد ذلك كل شيء عليه، ويضحي بكل شيء.

ومما نقوله له: أنه يوجد في الهند مسـلمون وفي غيرها فلم يقتلـوا، وإن قتلـوا فلا بد من الصـبر، ويوجد من أسـلم وكان هداية قريته على يده -والحمد للـه- وهـذا موجـود في الهند وغيرها، فلا عذر لأحد في أن يضل على شركه وكفره ولكن: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ [النحل:106] إذا آمن ورأى أنهم يكرهونه على الكفــر،فهـذا قد أعــذره الله تبارك وتعالى.

حكم اختلاط المرأة وتبرجها في الأسواق

السؤال: ما حكم اختلاط المرأة وتبرجها في الأسواق؟

الجـــواب: مســـألة الكشف والاختلاط والتـــبرج في الأســـواق، ابتلينا بها كما ابتليت المنـــاطق الأخـــرى بالممرضات، وبالمدرسات الأجنبيات كما يقال، ثم العـادات القديمة الـتي عنـدنا من السـابق، وهي الكشف على ابن العم وابن الخـال والقـريب والجماعة أحيانـاً، وإذا بها حزمة مركبة من الأخطاء نرتكبها يومياً.

وأمر مهم جـداً وهو أمر الفصل بين الـذكور والإنـاث والحجـاب والمحافظة على العـرض والغـيرة، وهـذه من الأمور التي ذكرها الله تعـالى في كتابـه، وهـذه من الأمـور التي يفرق بها بين المجتمع المسلم الحقيقي وبين الادعـاء، فإذا ذهبت إلى أي بلد في العـالم ووجـدت النسـاء يتحجبن، قلت: هـذا بلد طيب، وتثـني عليـه، وإذا وجـدتهن متبرجـات تعرف أن هذا بلد سوء وفجور وفساد، وهذا من الأمور التي فطر عليها الناس، حـتى الـذي لا يصـلي يحكم على النـاس من خلال نظرته في حرصـهم على الأعـراض، ويحكم على المجتمعات من خلال أعراضها أيضاً.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: {الحمو المـوت } وهـذا لما سـئل عن الحمـو، والحمو هو قـريب الـزوج، والموت: هذه العبـارة نحن نعـرف معناهـا، فـإذا قيل لك ما رأيك في فلان، قـال: المـوت، فهـذه العبـارة لا تحتـاج إلى شرح، بمعنى أن الضـرر الحاصل منه في الحقيقة أنه أكـبر من جهة أن دخوله وخروجه غير مستنكر.

فالإنسان الغريب في القرية، من المسـتغرب أن يـدخل في بيت فلان والرجل في العمل أو غـيره، لكن أخـوه أو قريبه يدخل بغطاء الشيطان: {ما خلا رجل بـامرأة إلا كـان

الشـــيطان ثالثهما } فالتقـــاء الشـــرارة مع البـــارود أو البترول، هذا إذا حدث دون انتباه من الناس؛ فهو أخطر من حدوثه بمكان والدفاع المدني موجـود، لكن هـذه المشـكلة الآن تقع في البيوت.

مثلاً: هـذا بيـتي وهـذا بيته قـريب، والزنا -والعيـاذ باللـه- أنواع، ودرجات في التحريم، ومن أعظم أنواع الزنا كما بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عبد الله بن مسـعود -: {أن تزاني حليلة جارك } فالزنا بزوجة الجـار أكـبر من غيره -والعياذ بالله- وكله كبيرة وشر وفاحشة.

وهـذا لأن هـذا الجـار قـرب الـدار، وليس غريبـاً أن هـذا يذهب عند هذا، أو أن هذه تذهب عند الجيران، وهكـذا كلما كان الاقتراب من الشر أكـثر،كلما كـانت الحـدود الشـرعية أقوى، مثل سد المياه، كلما كان عند التيار كان السد منيعـاً وأقـوى، وهكـذا حكمة اللـه، وهي أعظم حكمـة، وهو أحكم الحاكمين.

ولذلك جعل الحمو الموت، حيث إن المرأة تكشف على أهل الـــزوج أو أقاربه ممن ليســوا من محارمها أو تختلط بهم، أو تضحك معهم، وتحصل زيارات وعلاقات، ثم تكون -والعياذ بالله- الفاحشة.

وعنــدما نقــول تكــون الفاحشــة، لا يُفهم أن الــدين أو الشــرع ما حرمها إلا من أجل أن الزنا ســيقع،ويقــول -إن شاء الله- أهلي ما يفعلـون، وهـذا الظن بجميع المسـلمين، لكن الزنا درجات: {العين تزني وزناها النظـر، واليد تـزني، والفم يزني، والقلب يزني، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه } فالنظر من أنواع الزنا، وسماه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ زنا، ولهذا حتى لو كانت ليست جارة أو قريبة ولا أي شيء، لو نظر إليها الإنسان في مجلة من هذه المجلات السخيفة، الــتي كل واحــدة لها اسم كبـير مثل مجلة النهضة ، ومجلة اليقظة ، ومجلة التضـامن ، وفيها صـور، فهـذا زنـا، والنظر

إلى صورة المرأة زنا، والذي سـماه زنا هو الرسـول صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا بد أن يؤدي إلى شـيء، وأقل ما يـؤدي إليه هو اشــغال القلب، وتحريكه بالشــهوات -نســأل الله العفو والعافية- وإن لم يفعلها فقد شغل قلبه بها.

وهـذه قضـية مهمة جـداً، فـالعمر -واللـه- محـدود، وكل شـــخص يجب أن يعلم أن العمر محـــدود، والســـاعات محـدودة، وليس عند الإنسـان طاقة أعظم من طاقة هـذا القلب والفكـر، فـإذا أشـغلت هـذه الطاقة الفكرية في ذكر اللـه، والتفكر في الآخـرة، والتفكر في ملكـوت السـماوات والأرض، وفيما ينفعك في دنياك، فقد أشـغلتها بـالخير، وإلا فستصـبح الشـهوات والمحرمـات تـدور في ذهنـك، وتفكر فيهـا، وتهـوى هـذه، وتتمـنى هـذه، وتعشق هـذه، وتريد أن تتعرف على هذه، وضـاع العمر في معصـية، فشـغل القلب بغـــير ذكر الله ســـبحانه، صـــرف لأعظم طاقـــة، وأفضل مجهود، وأهم قضية في حياتك وعمـرك، فيما يريـده أعـداء الله من الإنس والجن.

حيث أنهم يريدون أن يشغلوا أوقات الشـباب ويضـيعوها بهــذا الشــيء، فتــدور حــول الشــهوات، والمتــاع الفــارغ، واللـــذات المحرمة فتخسر جهــدك العقلي والقلــبي، وهي أعظم خســارة، وكثــير من النــاس إذا ضــاعت مائة ريــال يتأسف وينــدم، لكن إذا ضــيع يومــاً، فلا يأسف عليه وهــذا خطـأ، فـإذا ضـيعت يومـاً أو سـاعة لم تـذكر الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها، كـانت حسـرة يـوم القيامـة، فما بالك إذا كـان الذهن مشغولاً بهذه الصـور، والنظر إليهـا، وإذا كـان الفكر يــدور حولهــا،والهم فيهــا، فهــذا إضــاعة للعمــر، ومــدخل للشيطان أن يدعو الإنسان إلى أي فاحشة.

وهذا يورث ظلمة في القلب، وانقطاعاً عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويورث أن الإنسان إذا جاء إلى المسجد يأتي وهذه الشهوة مسيطرة عليه، تشوش عليه باله، وإن لم يأت إلى الصلاة فهذا أدهى وأمر -نسأل الله العفو والعافيـة- فـاتقوا

الدنيا واتقوا النساء، ففتنة النساء هي أعظم فتنة كما ذكر ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حكم إضاعة الوقت فيما حرم الله

السؤال: أكثر شباب المنطقة يسهرون ليلهم إلى ما قبل صلاة الصبح، وينام إلى صلاة العصر، ونعرف منهم أناساً لا يصلون، فما رأيكم؟

الجواب: هؤلاء هم الرفقة السيئة، وكما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {يحشر المرء مع من أحب } حيث يحشر هؤلاء يوم القيامة في زمرة أصحاب الدخان والشيشة والأفلام والمخدرات واللغو والباطل، والحلف بغير الله.

ولو لم يكن إلا إضاعة الوقت، فإضاعة الوقت في شيء لا فائدة فيه خسارة كبيرة، فما بالك إذا أضاعه فيما هو محرم، وأعظم من ذلك إذا أدى إلى ضياع صلاة الفجر والظهر.

فهذا الرجل السهران إلى الفجر، الذي ينام مع الأذان إذا جاءته سكتة قلبية في نومه، كما يحصل لبعض الناس فمات، فعلى أي ملة يموت، أيموت على ملة الإسلام -نسأل الله العفو والعافية-؟!

فأي خزي أعظم من هذا الخزي؟!

وأي مصيبة يمكن أن تحيق بأي إنسان أو تحيط به أعظم من هذه؟!

هذا لو فقد أهله أو ماله، أو جاء عدو واجتاح بيته، وأخذ أهله وقتلهم، لكان ذلك أهون أو مساوياً لمن فاتته الصلاة، وهذا مثال ضربه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الدنيا،لمن ضيع أوقات الصلاة، أو فريضة من الفرائض،

فكيف من يختــار ذلــك، ويســهر عمــداً،ثم ينــام عن هــذه الفريضة - نسأل الله العافية- ويعلم أنه لن يصليها؟!

بعض وسائل إدخال السحر إلى البيوت

السـؤال: وجـدت في بيتنا ورقة مكتـوب فيها بسم الله الــرحمن الــرحيم، واسم الوالــدة بلــون أصــفر، والورقة ملفوفة بخيط تحت فـراش أبي، فأخـذتها الوالـدة وأنا معها فأحرقناها، هل هذه ورقة سحر؟

الجواب: الظاهر والغالب أن هذه ورقة سحر -نعوذ بالله من ذلك- ولا بد أنه وضعها شخص ممن يدخلون البيت.

وفي هــذه المناســبة كثــير من النــاس -وهــذه وقــائع مشهودة- سحروا عن طريق الخادمات، ولا تقل هذه خادمة مغفلة لا تفهم شــيئاً، بل إن هــذا أمر عــادي جــداً عنــدها، فربما تصــنعه بنفســها، أو تكتب لمن يصــنعه وتضــعه، وقد حدثت عدة حالات.

ودائماً الذنب والمعصية تستتبع مصائب ومعاصـي، ومنها معصية استقدام النساء بلا محـارم، وإسـكانهن في الـبيوت مع الرجـال والأولاد -نسـأل الله العافيــة- وما ينتج عن ذلك من مصائب.

الوقاية من السحر

الســـؤال: هل المداومة على أذكـــار الصـــباح تقينا من السحر؟

الجواب: نعم. المداومة على هذه الأذكار -إن شاء اللــه- تمنع وقوع السحر، وإذا ابتلى الله عبداً وأراد أن يبتليه فإنه يبتليه وإن أخذ بالأســــــــــباب، لكن يجب علينا أن نأخذ بالأسباب، والله أعلم.

حكم الألعاب البهلوانية

السؤال: حدث يوم الأربعاء الموافق 26/12 حفل ختامي للتنشيط السياحي الذي أقيم في ملعب الفرح على الطريق العام، وبدأ الحفل بالقرآن، وبعض الكلمات وأغاني، ومن ضمن الفقرات خرج رجل يسمى البهلوان إلى وسط المتفرجين، وأحضر معه سيخاً حديدياً، ووضع طرفه في الأرض والطرف الآخر في عينه، ورأى المتفرجون بأنه ثنى السيخ بعينه، وأُحضر له لوح خشبي ممتلئ بالمسامير الحادة، ووضعه على ظهره، وجاءوا بصخرة يحملها أربعة أشخاص، ووضعوها على صدره، وجاءوا بمطرقة ضخمة وفجروا تلك الصخرة على ظهره، وقام وليس به شيء ونزع قميصه، وأراه الجمهور وهو مخرق من جهة ظهره، وقد أصبح حديث الألسن.

نأمل توضيح ذلك هل هذا من السحر أم أن من قدرته أن يفعل ذلك، وجزاكم الله خيراً؟

الجواب: نقول ما فائدة عرض هذه العروض؟ إن كانت تعرض على سبيل أن هذا من الأولياء أو الصالحين، أو العباد الذين لهم كرامات؛ فهذا له جواب.

وعباد الهنود -الآن- يدعون الأمريكيين والأوروبيين إلى دينهم، وليس عندهم دين يدعون إليه، وليس عندهم حقائق يدعون إليها، فيذهبون إلى المدن الكبرى هناك، في نيويورك ، وكاليفورنيا ، وواشنطن ، ولندن ، ويلعبون مثل هذه الألعاب، فيأتي رجل ويدق السيخ في رأسه، ويفعل بالحديد مثلما فعل هؤلاء، ويأخذ حديدة محماة على النار حتى تكون حمراء، ويضعها على الثاني إلى غير ذلك. وهذا قطعاً من السحر ومن استخدام الشياطين -نسأل الله العفو والعافية-.

ولهذا شَيْخ الإِسْـلامِ ابن تيمية ، لما نـاظر البطائحية من الصـوفية المشـركين بالله -والبطائحية الرفاعية هم جماعة وأتباع ما يسمونه الشـيخ أحمد الرفـاعي - قـالوا: علامة أنه على الحق أو أنك أنت على الحــق: أن نوقد نــاراً ونــدخلها نحن أو أنت.

وشَــيْخ الإِسْــلامِ رحمه الله كــان فطنــاً ولم يكن مثلنا يُضـحك عليـه، قـال للحـاكم: نعم. بشـرط أن نغسل جلودنا بالنشادر، ثم نـدخل أيـدينا، فقـالوا: هـاتوا الحطب، قـال: لا نحتاج حطباً كثيراً، يكفي الواحد أن يدخل يديــه، لكن المهم أن ندهن أيدينا بالنشادر، فلما رأوا الجد نكلوا ونكثوا.

إذاً فيها حيل شيطانية.

وهــذه القصة ذكرها شَــيْخ الإِسْــلامِ رحمه الله بنفســه، وذكرها ابن كثـير وغـيرهم من المـؤرخين في حياته رحمهم الله.

فهؤلاء سحرة يجب أن يقتلوا، وبعض الناس لا يقول: أنه ولي، ولا يريد بـذلك أن يعظمه النـاس تعظيم عبـادة، ولكن يعظمونه تعظيم بطولة، فهو نجم وبطل، كلاعبي السيرك -مثلاً- أو غير ذلك، وهذا أيضاً فيه نـوع من الاسـتعانة بـالجن والشـياطين، أو نـوع من التحايـل، كـأن يضع حديـداً مخفيـاً ولكن لا يراه الناس، ويضـربون الحديـد، ويظن النـاس أنهم يضـربونه، لأن كل فن أهله أعـرف بـه، حـتى الحيـل، وكل شيء أهله أعرف بطريقته وأساليبه.

فإما أن تكون حيلاً وهـذه ليس فيها إشـكال إلا من جهة أنها توهم الناس فيظنون أن هذا خارق للأسباب.

فالصــحابة رضي الله عنهم عنــدما كــانوا يُضــربون بالسـيوف فـإنهم يموتـون، مثلما حصل لحمـزة رضي الله تعـالى عنـه، فهل هـذا الـذي لم يتـأثر بالضـرب أفضل من

حمزة أو أنه أقوى منه؟!

فهـذا العمل -لا شـك- يُحـدث ارتباكـاً للنـاس؛ لأن من حكمة الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى أنه ربط الأسـباب بالمسـببات، فجعل لكل شيء سبباً، فلو تحركت كأس من مكانها بـدون أي سبب فإن كل الناس تندهش! فالله فطر الناس جميعـاً على هذا، حـتى الصـغار والكبـار، حـتى الجهلة لا بد عنـدهم من الأسباب.

فمن الأسـباب المعروفة أن شخصـاً نضع على بطنه صخرة، أنه يمـوت، فكيف يـأتي واحد وتوضع الصـخرة على بطنه ومع ذلك لا يضره؟!

فنكـون بهـذا هـدمنا قاعـدة متعـارف عليها قطعـاً، وهي قاعـدة الأسـباب والمسـببات، فهـذا يـؤدي إلى إربـاك في العقـل، وهـذا الارتبـاك منه يـدخل الفسـاد والشر والشـرك والإلحـاد؛ لأن الله تعـالى لم يفضـلنا إلا بهـذه العقـول، ولم يأمرنا أن نسير في الأرض ونضرب في مناكبها إلا بناءً على أن هناك أسباباً معينة، إذا أخذنا بها نلنا ما يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا ضاعت هذه الارتباطات العادية -وهي الأسباب والمسببات- فإننا نتيه بعد ذلك، ويصير الواحد منا يصدّق ما لا يُصدَّق، وينكر ما لا يجوز إنكاره.

فهي على أي حـال من المنكر الـذي يجب أن يحـارب، وفيما أعلم أن هذا ممنوع، فقبل حـوالي عشـرين سـنة من الآن، ونحن ما زلنا طلاباً في المدرسة، جاءت فرقة هنديـة، وأرادت ان تعمل سـيركاً في الباحة ، فمُنعـوا وجـاء أمر بمنعهم من إقامتـه، بسـبب أنه كـان يشـتمل على هـذه الألعاب البهلوانية كما يسمونها.

حكم التعامل مع البنوك

السؤال: أنه سُئل بعض العلماء عن شركة الراجحي أنها

تشتري سيارات ثم تبيعها للمواطنين بالتقسـيط، فقـالوا: لا بأس بذلك، فما رأي فضيلتكم؟

الجـواب: ليس هـذا كل ما في الأمـر، لكن بعض النـاس قالوا: إذا كانت الشركة تتعامل بالربا، وكانت هذه المضاربة إسلامية فلا بأس بذلك؛ لأن المعاملات الربوية في البنوك لا تمنع أو تحرم المعاملات الإسلامية فيها.

والصـحيح أن هنـاك فرقـاً بين العقد المنفصل وبين ما كـان من ضـمن العملية الربويـة، أي: أن الأصل في البنـوك والتمويل هـو: الائتمـان والإقـراظ والإيـداع، هـذا هو عمل البنوك، لكن كون الواحد مرابياً لكنه -مثلاً- يـبيع الأسـمنت، أو مواد بناء، أو أخشاباً وعمل فيها مضاربة، فإن هذا العمل يعتبر صحيحاً وخارجاً عن الربا.

فهذا العمل غـير العمل الـذي هو عمل البنك الأساسـي، الـذي يكـون فيه البنك مكانـاً للتسـجيل والقيـد، حيث أن الإنسان يودع المال في البنك، ويقول له البنك: مـاذا تريـد، هل مضـارية إسـلامية أو على عادتنا -أي بطريقة الربـا-؟ قال: لا. أنالا أريد رباً.

فهـذا الأمر يعتـبر استهزاء بـدين الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، واستهزاء بأهل الدين الذين يذهبون إليهم ويقولون لهم هذا الكلام.

والمقصود أن المـرابي لوعمل أي عمل آخر خـارج الربا فـإن هـذا العمل يعتـبر حلالاً، ولا نقـول: إن كل معـاملات المرابي حـرام، لكن إذا كـانت مما يـدخل من ضـمن عملية الربا من التمويل والإئتمان والإيداع...إلى آخره -كما تتعامل به البنوك- فهذا هو الحرام.

فهذا المال الذي تتعامل به البنـوك حـرام، وهـذا يقع كل يوم، وليس في كل شهر -مثلاً- أو سنة، حيث يقفّل الرصيد

كل يـوم على مبلغ معين، وتتم المقاصّـة في مؤسسة النقد بين البنوك، مـاذا أخـذ، ومـاذا أعطى؟ فهم لا يقولـون: هـذا احسـبوه مع حق الإسـلام وهـذا احسـبوه مع الربـا، بل كله مختلط ليس فيه فرق، ولا نضحك على أنفسنا.

حكم طلب الدعاء من أهل الخير والصلاح

السـؤال: ما حكم طلب الـدعاء ممن يظن به الخـير والصلاح كالعلماء؟ وهل طلبه منهم من التواصي المشـروع أم لا؟

الجواب: شَيْخ الإِسْلامِ ابن تيمية رحمه الله يقـول: ليس به بأس، ويستدل بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـعمر : { لا تنسنا يا أخي من دعائك }.

فطلب الدعاء من الصـالحين لا بـأس به -إن شـاء اللـه- وجائز، ولكن هنـاك فـرق بين الجـائز وبين المنـدوب إليه أو المطلوب والمستحب والمشروع.

فـالواجب أو المطلـوب أو المشـروع في الـدعاء هو أن يُدعى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مباشرة، ودعاء العبد لربه بنفسه قد يكـون واجبـاً، وقد يكـون مسـتحباً، لكن أن يطلب من غـيره أن يـدعوَ له -أي: أخ في الله صـالح أو من العلمـاء- فهذا جائز، وأيهما أفضل الجائز أم المشروع والمندوب؟

المشروع أفضل، فلا يجعل ذلك على سـبيل الاتكـال فلا يدعو الله، وإنما يظل يذهب ويـزور الصـالحين وأهل الخـير ويقـول: ادع لي، ولا يـدعو الله هـو، بل الصـحيح أن تـدعو اللـه، وهـذا هو القاعـدة والأصـل، ولا بـأس أن تقـول لأحد إخوانك: ادع لي.

حكم قول القائل: لو لا الله وفلان، ولولا العالم الفلاني

السـؤال: قـول النـاس: لـولا الله وفلان، ولـولا العـالم الفلاني، هل هذا من التوسل المحرم؟

الجـواب: هـذا من الألفـاظ الشـركية، وهو من شـرك الألفاظ، كقول: ما شاء الله وشـئت، فعنـدما قالها الرجـل، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: {أجعلتـني لله نـدّاً؟! قل ما شـاء الله وحـده } والحلف بغـير الله بغـير نيّة تعظيم المحلوف به كتعظيم الله، أو أن يقول لولا الله وفلان، هـذا من شرك الألفاظ، وهو شرك أصـغر، ولكنه ذريعة ووسـيلة إلى الشرك الأكبر.

وإذا اقترن به اعتقاد صاحبه أن هذا المحلوف به أو هـذا الـذي قيل فيه لـولا فلان أنه هو فعلاً الـذي يـؤثر تـأثيراً مستقلاً بذلك، وهو صاحب الأمر والتدبير والشأن، فإن ذلك يكون شركاً أكبر.

وكثير من الروافض والصـوفية -والعيـاذ باللـه- يعتقـدون أن الله تعالى فوّض الأمور إلى الأولياء، فأعطى عبد القادر الجيلاني مفـاتيح الأقـاليم السـبعة، أو أعطى كل واحد من الأولياء مفتاح إقليم من الأقـاليم، وأنه يـدبّر ويـرزق ويحـيي ويميت -والعياذُ بالله- وهذا شرك أكبر.

إذاً إذا قـال: لـولا عبد القـادر الجيلاني لم يحصل شـيء، بنية التفويض في التصرف، فهذا شـرك أكـبر، أما إن قـال: لولا فلان ما جاء كذا، فهذا من الألفاظ الشركية التي يتحرز منهـا، لأنها قد تـوهم وقد تـؤدي للشـرك الكـبر، فيقـول الإنسان: لولا الله ثم فلان.

حكم دفن أطفال الكفار في مقابر المسلمين

السؤال: يقول الأخ: إذا مات طفل من أبـوين نصـرانيين في بلد الإسـلام، فهل يـدفن في مقـابر المسـلمين نظـراً لفطرتـــه، أو مـــاذا يعمل به وهـــذه واقعة في إحـــدى

المستشفيات.

الجواب: هـذا مما يـبين لنا خطر ومخالفة وإجـرام وذنب من يستقدم الكفـار إلى جزيـرة العـرب ، لأنه لا يجتمع فيها دينان، وهذه من الشواهد ومن الأدلة على صحة وتأكيد هذا الخطر.

فإن المعصية إذا ارتكبت فإنها تستتبع وتستلزم معاصي، فلمّا أدخلناهم بلادنـا، وعصـينا الله ورسـوله، وأتينا بهم إلى بلاد الإسـلام الطـاهرة، جـاءت مشـاكل إذا مـاتوا، أو مـات أطفالهم.

وقد قال بعض الناس: أحسن شيء أن نفعل لهم مقبرة خاصة، وهذا يمكن أن يكون اجتهاداً أو غفلة أوجهلاً، وقالوا: لماذا لا نجعل في كل مدينة مقبرة للكفار؟ فهم يريدون أن يجعلـوا لهم وقفـاً في بلاد المسـلمين، فـيزورونهم ويـأتي إليهم أهلوهم، ويوماً من الأيام يطالبون بالأرض.

فهـذا من غاية الغفلة والغبـاوة، فإنه لا يجـوز دخـولهم فكيف نجعل لهم مقبرة؟!

وبالنسـبة للطفل فـإن الطفل تبـعٌ لأبويه في الأحكـام، فلـذلك الطفل النصـراني يعتـبر من النصـارى، والطفل اليهودي يعتبر من اليهود ما دام أبواه موجودين، ويخرج من هـذا الحكم في حالة ما إذا وجدته في بلد فيها مسـلمون وفيها كفـار، أو في حي من أحيـاء اليهـود والنصـارى، وهو مولود، لا يعلم له أب -فهو لقيط- فأخذته أنت، فهـذا يكـون حكمه الإسلام؛ لأن الأبوين ليس لهما عليه ولاية، أو سلطة.

فالطفل يعتـبر تبعـاً لأبويـه، ولهـذا لا يجـوز أن يقـبر في مقابر المسلمين.

حكم الالتزام ببعض الأدعية عند العزاء والجنازة

السؤال: ما حكم الالتزام ببعض الأدعية عند العزاء والمشي بالجنازة؟

الجواب: كثير من الناس يردد عبارات غير مشروعة في العزاء والجنازة، مثلاً: ارحم ارحم، أو يقرءون الفاتحة وهم يحملون الجنازة، أو أي شيء غير مشروع، وهذا كله بدعة، وإنما السنّة في مثل هذا هو الدعاء، فكل إنسان يدعو للميت بالرحمة والاستغفار، ويتذكر الآخرة، ويمشي في الجنازة، وله في ذلك من الأجر قيراط -إن شاء الله تعالى-.

وأمّا الدعاء بعد الدفن فهو الدعاء بالتثبيت، لأنه في تلك اللحظة يُسأل، ولا بأس أن يدعو الإنسان بأي أدعية، ويتضرع إلى الله بأنواع من التضرعات والتوسلات التي ذكرناها في أسماء الله وصفاته، بأن يثبته، وهذا لا بأس به ما دام لم يلتزم دعاءً معيناً، ويظن أن هذا الدعاء هو المشروع، مع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشرعه.

كيفية الرد على من يؤول آيات المعية

السؤال: الله تبارك وتعالى يقول: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [المجادلة:7] فإذا سألنا أحد أين الله؟ نقول له: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:5] والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { سأل الجارية: أين الله؟ قالت: في السماء } فيقول: بل معنا في كل مكان، وهذه الآية دليل على ذلك، فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

الجواب: الله تعالى معنا في كل مكان بعلمه وهذه

الآية: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [المجادلة:7] وفي آخرها قال: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [المجادلة:7] فإذاً هو معنا بعلمه، لكن بذاته عزّ وجل على العرش استوى.

إذاً لا يوجد إشكال والحمد لله.

وفي الآية الأخرى: وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ [الزخرف:84] قال بعض أهل البدع: إذاً هو في الأرض موجود وفي السماء موجود بذاته، فنقول لهم: هذا المعنى لا يصح، بل الصحيح أنه في الأرض إله معبود، وفي السماء إله معبود، وهو المستحق وحده للعبادة.

حكم قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك بحبي للصالحين

السؤال: هل يجوز أن يقول أحد: اللهم إنّي أتوسل إليك بحبّي للصالحين من العلماء والدعاة؟

الجواب: قوله: اللهم إني أتوسل إليك بأني أحبّ فلاناً، وما أحببته إلاّ فيك، ولوجهك الكريم -مثلاً- فهذا صحيح وجائز، لأن الحب في الله أوثق عرى الإيمان، فإذا دعوت الله بالحب في الله، فقد دعوته بأمرٍ وعمل صالحٍ مشروع فلا بأس بذلك -إن شاء الله-.

حكم الواسطة في طلب غرض دنيوي

السؤال: ما رأيك في الواسطة التي يتوسط بها الناس للحصول على عمل، هل فيها شرك؟

الجواب: إذا كان شخص يريد واسطة لوظيفة أو عمل فهذا لا يعتبر شركاً، بل هذه أسباب دنيوية.

لكن: مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا [النساء:85] فهذا حسب النوع، إن رأيت شاباً محتاجاً وتوسطت في إدارة

من الإدارات، ليعمل شاب جيد، وفي وظيفة طيبة، فهذا لا بأس به.

وإمّا إن كان -والعياذ بالله- العمل شر أو فساد، كالخمر أو الزنا، أو فيه رشوة، أو الواسطة هذه حجبت حقاً لأحد، أو حرمت إنساناً من حقه، أو أعطت ظالماً وكبتت مظلوماً، فهذه تكون شفاعة محرمة.

الدليل على وجود صحوة إسلامية في خارج المملكة

السؤال: هل هناك صحوة إسلامية خارج المملكة ، وإذا كان ذلك صحيحاً، فما دليلكم على ذلك؟

الجواب: نعم هناك صحوة موجودة -والحمد لله- في كل مكان، والأدلّة على ذلك أنهم يطالبوننا كل يوم، وكل حين بإرسال الكتب والدعاة، وهم يصبرون على ما يصبر عليه الشباب هنا، وهم في مصر والجزائر وغيرها من البلاد يتحملون ما لا نتحمل، فنحن هنا نجد معنا على الحق أنصاراً وأعواناً، ومجتمعنا يقبل الخير -والحمد لله- وعندنا بعض الأحكام المقامة، لكن هناك تجد القوانين الوضعية والمجتمعات تنكر عليهم، ومع ذلك يقاومون ويطبقون السنة.

فالفتيات محجبات، والشباب على السنة -إن شاء الله- في إيمانهم، وكذلك في مظهرهم، ويدعون إلى الله، ويؤذون في سبيل الله، وكثير من الدول وخاصّة التقدمية ، وكذلك البعثية ، السجون فيها ممتلئة إلى الآن وإلى هذه اللحظة من الشباب المؤمن، حتى في أمريكا بلد الفساد والإلحاد تجدهم من جميع الدول -من المملكة وخارجها- يعيشون هناك عيشة الأطهار الأبرار في مجتمع الكفار الفجّار، فهذا موجود والحمد لله.

هل قبر الحسين في القاهرة؟

السؤال: أخ يقـول: سـمعت من أحد المشـايخ أن الـذي في مكـــان قـــبر الحســـين في القـــاهرة هو مكـــان لرجل نصراني، فما صحة هذا؟

الجواب: أنا لا أعرف هذا ولا أجزم بـذلك، لكن الحسـين ليس موجوداً هناك لا كله ولا رأسه، وهذا مؤكد قطعاً.

نصيحة حول كيفية الدعوة

السؤال: أنا مصـري أعمل هنـا، وإذا ذهبت إلى القـاهرة أريد أن أوضح للنـاس فسـاد ما يعتقدونه في قـبر الحسـين ولا أسـتطيع، فما هي الطريقة الـتي تنصح بها لإنكـار هـذا المنكر العظيم؟

الجواب: أولاً: نسأل الله أن يوفق هذا الأخ الكـريم، وقد أحسن من انتهى إلى ما سـمع، وجعلنا الله وإيـاكم جميعـاً ممّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهـذا من فضل الله عز وجلّ أن يكون فينا دائماً ممّن إذا سمع شـيئاً من كتـاب الله أو سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ اسـتجاب، فهـذا الأخ نوّر الله قلبه، وعرف أن هناك واجباً عليه ما دام عرف التوحيد أنه إذا ذهب إلى بلاده أن يـــــدعوهم إليـــــه، وأن يحذّرهم من الشرك.

أمّا الطريقـة، فعليك بالوسـيلة الـتي ذكرها الله تعـالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ [النحـل: 125] فخذ الناس بالإقناع رويداً رويـداً، إبـدأ بأقاربـك، مثلاً: زوجتك أو أقاربك أو أعمامك أو زملاؤك بمن يثق بكلامـــك، ومن يحبه واطرح الموضـوع كقضـية عقلية هادئـة، وبيّن له بالأدلة الشرعية المبسطة، وبين له الذي ينفع والذي يضـــر، فـــإذا جئتهم بالأســـلوب الطيب -إن شـــاء اللـــه- يُلين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك قلوبهم.

كيفية إزالة مواطن الشرك

السؤال: في منطقتنا مكانٌ يسمى جبل لقمان ويدّعون: أن قبر لقمان فيه، ويقوم بعض الناس بدعائه فما العمل؟

الجــواب: هــذه أول مــرة أســمعها، وقد كــانت عنــدنا شركيات، وكان الناس يـذهبون للجبـال والقبـور، فـإن كـان بقي أحد يــذهب إليه ولو نــادراً، أو قد يعــاد الــذهاب إليه فيجب إزالته بالكليـــــــــة، ومن فعل ذلك فليحتسب الأجر العظيم عند الله، لأن النبي صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، أرسل عليــاً رضي الله عنه على أن: {لا يــدع قــبراً مشــرفاً إلا سـواه، ولا صـورة إلا طسـمها } وكما أرسل خالـداً رضي الله عنه فقطع رأس العزى.

فهـــــــذا يحتسب الأجر العظيم عند اللــــــه، ففي بعض المنـاطق في جهة ينبع وما حولها كُتب عنهـا، فجـاء الـدفاع المــدني وفجّر صـخورها بـأمر من رجـال سـماحة الشــيخ عبدالعزيز رحمه الله، فهذه تفجّر وتـزال وإن كـانت نسـيت بالمرّة -فالحمد لله- ونسأل الله أن تنسى نهائياً.

حكم قول القائل اشفع لي يا محمد!

السؤال: ما حكم من يقول: اشفع لي يا محمد؟

الجـواب: هـذا دعـاء لغـير الله وهو من الشـرك الأكـبر، ولكن نسأل الله ونقـول: اللهم شـفّع فيَّ رسـولك، فنسـأل الشــفاعة من اللــه، ونــدعو الله أن يجعله شــفيعاً لنا يــوم القيامة.

معنى قوله تعالى: (وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْـرُ وَاسْـتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)

السؤال: ما معنى قول الله تعالى: وَغِيضَ الْمَـاءُ وَقُضِـيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [هود:44]؟

الجواب: المعنى: أن الله تعالى أمر السماء أن تقلع عن المطر، وأمر الأرض أن تتشـربه فغـاب في الأرض، ومعـنى غاب أي: هبط ونزل في الأرض، واستوت على الجودي أي: اسـتقرت السـفينة على جبـلٍ يسـمى الجـودي، ولو سـأل سائل: أين يقع، وكم طوله، تقول: هـذا لا يهمنا ولم يتعبـدنا الله بذلك.

حكم من توفي وبقي عليه يوم من شهر رمضان، وحكم الصيام عنه

السـؤال: الأخ يقـول: إن جدته تـوفيت وبقي عليها يـوم من شهر رمضان، فإذا صامت ابنتها عنها، فما الحكم؟

الجواب: إذا صامت ابنتها عنها فهم مأجورون على ذلك، وإن لم يفعلـــوا فالصـــيام على أيّة حـــال قد ســـقط عنها لعجزها.

حكم إرســال البنــات للســكن في الســكن الــداخلي للجامعات

السـؤال: مسـألة أن بعض الآبـاء من منطقة يرسل بناته إلى منطقة أخرى، ويقـول: لم يقبلوها في المـدارس الـتي في الباحة ، فنرسـلها لجـدة ، وقـال: تسـكن في السـكن الداخلي، فما حكم ذلك؟

الجـواب: عجيب جـدّاً، والله لو تعلمـون ما الـذي يجـري وماذا جرى في السـكن الـداخلي في جامعة جـدة وغيرهـا! لكــان الإنســان يحبس ابنته بالسلاســل، ولو تعيش صــمّاء بكمـــاء عميـــاء، وليس فقط ألا تتعلم وألا تأخذ الجامعـــة، فهنـاك تحـدثت مصـائب وفتن، فهم عنـدهم إذن بـالرحلات الجماعية إلى البحــر، ورحلات تســويقية، وحضــور حفلات، وخروج مع الـزميلات، فضـلاً عمّا يحـدث داخل السـكن من

أمور وهي ثابتة، والهيئات تتابعها، والدعاة يلاحقونها، وبعض المخلصين في الجامعة يتابعها.

فحقيقة أنه شيء عجيب جدّاً أنك تجد الرجل فيه الـدين والأصـالة والعـادات الطيبـة، ثم يرسل ابنته هنـاك، يقولـون له: أين ابنتك؟ قال: في السكن الجامعي، لماذا؟ قـال: من أجل أن تأخذ شهادة، سبحان الله! يكتب في الجرائد تقريباً كل يـــوم أن أخذ البنت للشـــهادة العليا أصـــبح ســـبباً في حرمانها من الـزواج، فمـاذا أفـادت هـذه الشـهادة؟! حيث تصـبح المتخرجة من الجامعة ترضى أن تكـون زوجة لرجل طاعن في السن، والأمر ليس فيه شيء، لكن هي ترى أنها حُـرمت، وتـرى أنها تصـبح زوجة ثانيـة، وأيضـاً أمر الزوجة الثانية ليس فيه شـيء، لكن هي تـرى أن أختها الـتي في المتوسـطة أو في الثـانوي، أخـذت شـاباً وارتـاحت، وهي أخذت كبيراً أو زوج الثانية، ولا يوجد أمامها إلا ذلك، وإلا لن تـــتزوج، فأصـــبح تعليمها نكبـــةً عليها -نســـأل الله العفو والعافية-.